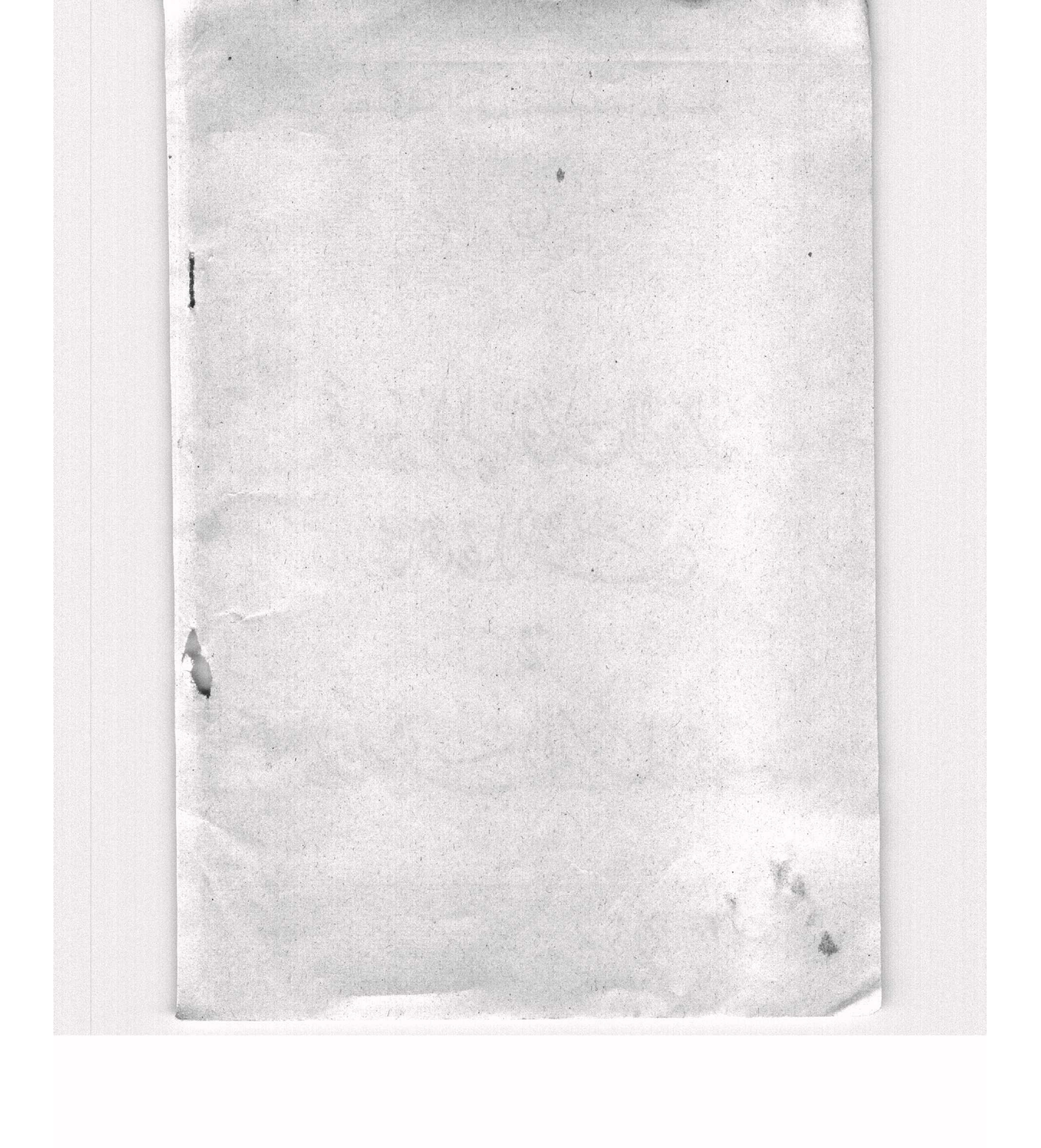
التصوف الثورة الأخلاقية

(١)

تجديد الرياضات الروحية ومجاهدة النفس في التصوف الإسلامي

دكتور/ إبراهيم إبراهيم محمد ياسين



ضرورة الحياة الروحية للانسان

تقديم :

يواجه الفكر الروحى الصوفى فى العالم الاسلامى أزمة طاحنه وظالمة . ذلك أن كثير من المفكرين المسلمين ينكرون على الصوفية مشاربهم واتجاهاتهم ، ويغلقون الباب أمام كل اجتهاد فكرى حتى ولو كان مستمدا من القرآن والسنه خصوصا عندما يكون صاحب هذا الاجتهاد صوفيا أو سائرا على طريقة الصوفية ذلك أنهم يحكمون سلفا بأن أتباع التصوف هم دائما من الخارجين على الشريعة الاسلامية .

ولما كان الاتجاه الروحى فى الانسان قد أثخن جراحا تحت وطأة الاتجاهات المادية ، فان الحاجة تصبح ملحة لاعادة توازنة الذى اختل وأضطرب بسبب ضغط الاتجاهات المادية ، والمذاهب النفعية والنزعات الشكية والالحادية. ان الجسم يصاب بالمرض عندما يفتقد العناصر الحيوية اللازمة للحفاظ على سلامتة وحيويته — والأمر شبيه بذلك فيما يتعلق بالروح ، ذلك أن الانسان قد يدمر توازنه الروحى اذا ماأطلق العنان لنزواته واذا ماداب على اشباع رغاباتة وغرائزة — فههنا تخبو الروح وتتوارى وينشط الجسد بما يحمله من افات .

« يقول الكسيس كارل » من الغريب أن الانسان الحديث قد استبعد من الحقيقه الواقعيه كل عامل نفسى روحى ، وبنى لنفسه وسطا ماديا بحتا — لذلك نراه يصاب بالانهيار » [1] .

فاذا لاحظنا أن سلوك شبابنا قد أصبح سلوكا مبنيا على أسس مادية غرائزية لاأخلاقية .

---

(١) الكسيس كارل ، تأملات فى سلوك الانسان ، ترجمة الدكتور محمد القصاص ص ١٧٣ راجع مقداد يالجن (الدكتور) . فلسفة الحياة الروحية ، دار الشروق ١٩٨٥ م ، ص ١٨ ، ٢٣ ، ٣٠

واذا لاحظنا أن كثير من المؤسسات الاعلامية والفكرية تساهم — وربما دون وعى — فى دفع الشباب الى مهاوى الرذيلة ، أو الى التمسك بحرية جامحة والتعلق بصيغ وقوالب فكرية خداعة — فاننا ندرك على الفور السبب الكامن وراء كل الأمراض الاجتماعية ، والخواء الفكرى والروحى .

انك تسمع الأفراد يرددون الكثير من الكلمات والعبارات التى ترجع فى أصلها إلى القيم الاسلامية والروحية وهم لايفهمون معناها ، أو هم لايتمسكون بتطبيقها — فقد يقول المسلم « توكلت على الله » وهو لايعرف معنى التوكل ولم يعد له عدته ، وقد يقول الصبر مفتاح الفرج وهو نافذ الصبر فاقد الايمان وهو يردد بعض آيات القرآن دون أن يعى لها معنى — ودون أن يهتم باتباع نوع السلوك الذى تدعو اليه .(١)

لقد وصل الأمر فى كثير من الأحيان إلى حد الاعتقاد أن العظة الموجهه من خلال آيات القرآن آمر لايخص الأنا وانما يخص الآخر أو الأنت — ورغم أننا ندرك أن الموت هو نهاية كل كائن حى الا أننا عندما نسمع قوله تعالى ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ (٢)نظن أن الموت هو من نصيب الآخرين فقط وأن الذات فى مأمن منه ، فنواصل حيا الشهوة والجسد وتسلط المادة .

واذا كان الأمر قد وصل إلى هذا الحد من الانهيار الروحى المقابل للتمسك الشديد بالقيم المادية — فان المفكر يسأل نفسه فى كثير من الأحيان — ماذا — يفعل الانسان المسلم اذا أراد أن يتخلص من المعاص التى يرتكبها لمجرد الاختلاط بالجماعة المادية .

وماذا يفعل اذا أراد أن ينجو من الفتن والخصومات ؟ وماذا يفعل اذا أراد أن يعصم نفسه من الوقوع فى اثم الغيبة والنميمة والظن الآثم

---

(١) حسن حنفى (الدكتور) التراث والتجديد ، القاهرة ١٩٨٧، المقدمة من ص ١٢ـ١٥

(٢) سورة آل عمران الآيه ١٨٥

ثم ماذا يفعل كى يقاوم شهوة البطن والفرج ؟ وماذا يفعل بازاء صنوف الاستهواء والبذخ ؟

وماذا يفعل المسلم فى مواجهة النفاق ، والرياء ، والكذب ، والخوض ، فى أعراض الناس وسيرتهم ـــ وشهادة الزور وتزييف الحقائق وارساء قواعد الظلم والطغيان ؟

ولقد حاول الانسان عبر العصور أن يجد اجابات على هذه التساؤلات ـــ ومع ذلك جاءت فلسفات عديدة « كالبوذية » « والرواقية » وفلسفة « إسبينوزا » « وأشيلرماخر » « وهيجل » خلوا من البناءات الأخلاقية المتكاملة لأنها اختزلت الأخلاق الى لاشيىء تقريبا ـــ لذلك اتجه البحث إلى التصوف باعتباره كل نظره فى الحياة ترضى الفكر وتعطى وجود الانسان معنى يمنعه من القناعة بأن يكون جزءا من الوجود ، لكن يحمله على أن ينتسب اليه بروحه وبدنه ـ كذلك نحن نعتقد أن أخلاق تكميل الذات على صلة وثيقة بالتصوف وتعقل أخلاق تكميل الذات معناه مجرد البحث فى تأسيس الأخلاق على التصوف ، والتصوف لايقدم نظرة ثمينه فى العالم والحياة الا بالقدر الذى يكون أخلاقيا » كما يقول ألبرت أشفيتسر [1] .

ان المضمون الأخلاقى فى التصوف الاسلامى عظيم جدا لدرجة أنه يمكن أن يكون نظرية أخلاقية متكاملة تساعد على بعث الروح الباطنيه والأخلاق الفعالة والمعتمدة على الكتاب والسنة ، كذلك فان الرياضات الروحية التى اتبعها صوفية المسلمين لتقويم بواطنهم وتطهير نفوسهم هى من الأصالة والفعالية بحيث يصح أن يكون علاجا لأمراض نفسية كثيرة يعانى منها الجيل المعاصر من الشباب .

لذلك يجب أن يمتد كفاح الفكر تجاه التصوف الأخلاقى المعتمد فى أصوله على مصادر

---

(١) ألبرت أشفيتسر ، فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى طبع دار الأندلس ـــ بيروت ١٩٨٣ م ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

روحية اسلامية مستمده من القران الكريم ، ومن حديث رسول الله ﷺ بلاضافة إلى الاجتهادات الفكرية الأصلية والمعتمدة على ذلك التراث الروحى عند صوفيه المسلمين كلما وجدت .

ونحن واجدون ماننشده عن صوفية الحقائق الذين تفرغوا للعبادات والزهد فى الدنيا ، وهم الذين لايشتغلون الا بالله وبآداء الفرائض ، كما يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، وتجريد النفس عن كل مايشغلها عن ذكر الله ، كما يقول ابن تيمية » (١) لذلك فسوف نبحث عن أصول هذه الاتجاهات فيما ساد أحوال المسلمين من الصحابه والتابعين الذين كانوا أكثر ارتباطا بالقران والسنه المطهره ولايفزعنا ان كان البعض قد اشتدت حملته على الصوفيه فراحوا يقذفونهم ابالصفات التى تخرجهم عن الجماعة المسلمه وتصفهم بالكفر والزندقة ، مع أن فى سلوكياتهم مايمكن أن يقدم للمسلم منهجا صالحا للجماعة المسلمه — ولايهمنا هنا أن يقال أن هؤلاء هم « الصوفية » ولأنهم صوفية فيجب أن نهجر طريقتهم فالقوم الذين لنهج على طريقتهم هم هؤلاء الذين قال ابن تيميه فى حقهم « والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ، وفى كلا الصنفين من قد يجتهد ويخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب » (٢).

ونحن وان كنا لانهتم كثيرا باطلاق اسم « الصوفية » على جماعة من الناس انقطعوا لعبادة الله ومحاربة هوى النفس ، واجتهدوا فى الطاعة ، فاننا لانريد أن نخرجهم من الملة كما فعل البعض من الباحثين المحدثين ، ونكتفى هنا بأن نذكر رأى عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦١ هـ ، والمدفون ببغداد اذ يقول » المتصوف هو الذى يتكلف أن يكون صوفيا ، ويتوصل بجهده إلى أن يكون صوفيا ، فاذا تكلف وتقمص بطريق القوم وأخذ به يسمى متصوفا كما يقال لمن لبس القميص تقمص ..... من ثم تأتيه الأشياء وهو لايريدها

---

(١) ابن تيمية الحرانى ، مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية الحرانى طبعة المملكة العربية السعودية ١٣٨٩ هـ ، ج ١١ ، ص ١٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ج ١١ ، ص ١٨

ولايبغضها بل يمتثل أمر الله فيها ، وينتظر فعل الله فيها ، فيقال بهذا متصوف وصوفى اذا اتصف بهذا المعنى فهو فى الأصل صوفى مأخوذ من المصافاه — يعنى عبد صافاه الحق عز وجل ، ولهذا قيل الصوفى من كان صافيا من آفات النفس خاليا من مذموماتها سالكا لحميد مذاهبه ملازما للحقائق ، غير ساكن بقلبه إلى الخلائق والتصوف الصدق مع الحق ، وحسن الخلق مع الخلق......والمتصوف مكابد لنفسه وهواه وشيطانه » (١) .

فاذا بقى الأمر على هذا النحو المرتبط بالكتاب والسنه فانه يكون مناسبا أن نأخذ الطريقه على محمل الاجتهاد المحمود شرعا ، وهو اجتهاد ينمى الجانب الروحى فى الانسان ويسمو به فوق المستوى الشهوانى الغرائزى الوضيع .

ومن ثم فلابد من البحث عن الطريقة المثلى التى بها يصل الانسان إلى رياضة نفسه وتهذيبها عن الرزائل وتخليه عنها باتباع كل فضيله وزوال روح الشر من نفسه — على أساس أن الصوفيه ينظرون إلى النفس باعتبارها منبت الشر ، ومنبع الأخلاق الدنيئة والأفعال الذميمة « أى المعاصى والعادات السيئة مثل الكبر والحسد والبخل والغضب والطمع — وقاعدة رياضة النفس تتحقق بمنعها عن كل ماتتوق اليه وتشتهيه وخاصه من الأشياء التى ألفتها .

يقول « محمود شيسترى

لأدرى أين قد تكون أنت

مخالف الرسم والعادة لتنجو (٢)

ولسوف نتابع رياضة النفس فى المجاهدة والعزلة والجوع والصمت .

---

(١) — عبد القادر الجيلانى ، الغنيه لطالبى طريق الحق ، الطبعة الثالثة ، مطبعة البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٦ م جـ ٢ ، ص ١٦٠

(٢) قاسم غنى ، تاريخ التصوف فى الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٧٣م ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .

أولا « مجاهدة النفس »

(أ) المجاهدة ، ماهى ؟

المجاهدة فى الشرع محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها مايشق عليها بما هو مطلوب فى الشرع كما يقول الجرجانى » (١) .

كما يذكر القشيرى » (٢) أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن — المألوفات وحملها على خلاق هواها فى عموم الأوقات وتقترن المجاهدة بنوع من المواجهة الصارمة حيث درجت النفس الأمارة بالسوء على التمرد والاصرار على ارتكاب المعاصى .

لذلك وجب كبح جماحها ومراعاة حالها ، وكسر سلطان الغضب والتمرد والجموح بالخلق الحسن . وهذه هى الدرجة الأولى فى المواجهة — فاذا ماازدادت النفس جموحا وتمردا فمن الواجب كسر ذلك عليها ، واحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها من حقارة قدرها وخساسة أصلها وقذارة فعلها » (٣)

ويقترن جهاد النفس بازالة الأخلاق الذميمة التى اذا ماتمكنت من النفس جعلت منها عبدا ذليلا لشهواتها وغرائزها ، وتعد مثل هذه الأخلاق من الافات الاجتماعية الخطيرة التى تهدد القيم الأخلاقية الاسلامية ، وتصيب المجتمع الاسلامى بالتفكك ، وتبذر بذور الحقد والكراهية بين الناس يقول الكمشخانوى أن الصوفى « يجاهد نفسه إلى أن يزيل أخلاقه الذميمة من العجب والرياء والكبر والحسد والبخل والحقد واليأس ، والقنوط من رحمة الله ، وحب الجاه والمدح ، واتباع الهوى ، والتذلل للدنيا والشماته والجبن والتهور والغل والغش

---

(١) الجرجانى ، تعريفات ، مادة المجاهدة

(٢) القشيرى ، رسالة القشيرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ م ص ٥٣

(٣) الرسالة القشيرية ، ٥٣

فهذه وأمثالها من صفات القلب ومغارس الفواحش فيه ومنابت الأعمال المحظورة » [١] .

(ب) ولكن ماهى حقيقة النفس التى تتصف بكل هذه الصفات القبيحه وكيف يمكن مغالبة هواها ؟

الواقع أن النفس من وجهة نظر اللغة هى وجود الشيىء وحقيقته وذاته . وهى فيما جرت عليه عادات الناس وعباراتهم تحتمل معانى كثيرة — فالنفس عند طائفة بمعنى الروح ، وعند فريق بمعنى المرؤة وعند قوم بمعنى الجسد ، وعند جماعة بمعنى الدم — أما مراد محققى هذه الطائفة من هذا اللفظ فليس شيئا من هذا كله وهم متفقون على أنها فى حقيقها منبع الشر ، وقاعدة السوء » [٢] — وهم يعتقدون أنها السبب فى ظهور كل المعاصى ، بل وهى مصدر كل الآفات فهى تمتنع عن الحلم ، وتظهر الحقد والسفه وسوء الخلق .

ومن عيوب النفس أنها قد تعطيك الاحساس بالزهد مثلا حتى يخيل اليك أنك من الزاهدين حتى اذا ملكت الدنيا أو القليل منها هاجت منها الرغبة ، وكانت هى المطالبة والمنازعة ، والصادة عن الزهد ....

وكذلك تعطيك الرضا فى حال الرخاء والعافيه قبل وقع القضاء بالبلاء — والمصائب حتى يخيل اليك أنك من الراضيين .... فاذا نزلت المصيبه أو حل البلاء امتنعت عن الرضا بل عمدت إلى تهييج الجزع والتسخط — وكانت هى التى تدعو إلى مايكره الله عز وجل من السخط . وهى قد تخيل اليك أنك من المتوكلين الا أنها سرعان ماينقلب حالها فتتعلق بالأطماع كذلك فقد يخيل اليك أن للخوف أصل فى قلبك ، كما أن للصدق والاخلاص والتوكل والرضا مكانا فيه فلما جاءت الأحوال التى يتبين فيها هل صدقت فيما ظننت أنه قد سكن قلبك من هذه الصفات هاج الهوى منها

---

(١) جامع الأصول للكمشخانوى ، ص٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الهجويرى ، كشف المحجوب ، ترجمة د اسعاد عبد الهادى ، القاهرة ١٩٧٥ م ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

وجاشت الشهوات فى ضد ذلك كله فلو كان ذلك ساكنا قلبك لهاج فى وقت الحاجة اليه — ولما هاج ضده كما يقول المحاسبى » [١] . ومن طبيعة النفس أيضا أنها مخادعة ، متصنعه تنتهز الفرص لتنقض على صاحبها كى تخرجه عما يظن أنه كان فيه من صفات حسنه . وهى تنازعك الخير دائما فما ضاع خير قط الا لهوى النفس ، ولاركب الانسان مكروها الا لمحبتها ، وهى لاتفتر عن الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة فهى على هذا النحو تكون بمنزلة العدو اللدود الذى لايفتر لحظة ولايمل ساعة من الدعوة إلى ركوب الهوى .

ومخالفة النفس رأس جميع العبادات وكمال كل المجاهدات كما يقول الهجويرى [٢] لذلك تكون موافقة هوى النفس عين الهلاك ورأس الكفر لذلك يحذر الحق تبارك وتعالى من غلبه الهوى وسطوة النفس لقوله تعالى فى جهاد النفس ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[٢] وقوله جل شأنه نهايا عن متابعة الهوى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنه هى المأوى** ﴾ ، [٣]

ذلك أن اتباع الهوى مقترن بالسقوط فى اللذه والشهوة وحب الجاه والرياسه وهو فتنه الخلق لأنه ضل الطريق وقاد الخلق أيضا إلى الضلاله

يقول تعالى ﴿ **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله** ﴾ [٤] فالهوى اله معبود والويل لمن

---

(١) الحارث المحاسبى ، الرعاية لحقوق الله ، تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود القاهرة ١٩٨٤ م ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٢) سورة العنكبوت ، الايه ٦٩

(٣) سورة النازعات ، الايه ٤٠

(٤) سورة الجاثيه ، الايه ٢٣ راجع أيضا كشف المحجوب الجزء الثانى ، ص ٤٣٨

يكون هواه معبوده دون الحق وكل همته ليل نهار طلب رضاء هواه كما يقول ابن عباس »
(١) .

وقال النبى عليه السلام : أخوف ماأخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل » (٢) .

ويبدو لنا أن سلطان الشيطان على النفس وغلبته لها لايتأتى الا عندما يسيطر شيىء من الهوى على النفس عندئذ يأخذه الشيطان ويزينه ويجلوه لقلبه ويأخذ مما فى نفسه ليسرع اليه بما يشابه ماوجد فيه من هوى وكأن الانسان هو الذى يدعو الشيطان ليغزوا قلبه ويسيطر على عقله فيقوده إلى حيث يهوى ويورده مواردُ التهلكه لقوله تعالى فى جواب ابليس اذ كان يقول ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ (٣) فقال الحق تقدس وتعالى فى جوابه ﴿ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ (٤) ومن هنا فقد نتبين أن حقيقة الشيطان متمثله فى نفس العبد وهواه بمعنى أنه ليس خارجا عنه أو منفصلنا وأنما هو كامن فيه يغالبه عندما يستشعر فيه ميلا أو ضعفا ، ويسكن عندما يجد فيه قوة ومنعه منتظرا لحظة خواره لينقض عليه ويزين له الخطيئة لقوله ﷺ « مامن أحد الا وقد غلبه شيطانه الا ـ عمر رضى الله عنه فأنه غلب شيطانه » (٥) وترك الهوى يجعل العبد أميرا وسيدا لنفسه ، وركوبه يجعله عبدا أسيرا لهوه . والتخلص من الهوى من أصعب الأمور ذلك أنه عجينه بني آدم ، يختلط بطينته ويصعب فصله لذلك فان الخضوع للهوى ذل وقهر والخروج عنه عزه

---

(١) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٤٣٨

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل عن جابر وقال عنه ضعيف (شرح الجامع الصغير جـ ١ ، ص ١٢١ راجع كشف المحجوب . ج٢ ، ص ٤٣٨ .

(٣) سورة ص الآية ٨٢

(٤) سورة الاسراء ، الآيه ٦٥

(٥) رواه الترمذى فى النوادر « مالقى الشيطان عمر الاخر لوجهه وماسمع حسه الافر » راجع كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ .

وحريه — يقول «ﷺ» الهوى والشهوة معجونه بطينه بنى ادم [١] والشهوة أظهر صفات النفس ويقول عنها الهجويرى «أنها معنى مبعثر فى كل أعضاء الآدمى ، وجميع الحواس أبواب لها ، والعبد تكلف بحفظها جميعا ومسئول عن فعل كل منها» [٢]

فللعين شهوة ، وللسمع شهوة ، وللجسد شهوة ، وللسان شهوة والعبد مكلف بأن يقطع عن هذه الحواس دواعى الشهوة والهوى .

ومن افات النفس ركونها إلى استحلاب المدح والذكر الطيب وثناء الخلق ، وقد تحتمل اثقال العبادات لذلك ويستولى عليها الرياء والنفاق» [٣] فهى تقدم على الطاعة طالما استمتعت بالمدح وتنقطع عنها عند الامتحان والبلاء وكف . المحيطيين عن المدح والثناء .

ويعدد ذو النون المصرى مداخل الفساد إلى النفس فيرى أنها من ضعف النيه بعمل الاخرة ، والثانى عندما تصير الأبدان رهينه للشهوات ، والثالث عندما يغلبهم طول الأمل مع قرب الأجل ، والربع اذا اثر القوم رضاء المخلوقين على رضا الخالق ، والخامس اذا اتبعوا أهواءهم وحكموا شياطينهم ونبذوا سنة نبيهم عليه السلام ، والسادس اذا جعلوا قليل زلات السلف حجه لأنفسهم ودفنوا كثير مناقبهم [٤] .

ويرى الغزالى أن النفس تصاب بالمرض نتيجه لما يلحق القلب من أمراض ، واذا كان كل عضو من أعضاء البدن له وظيفه يؤديها فان المرض الذى يصيبه يعوقه عن أداء وظيفته على الوجه الأكمل لذلك كان مرض القلوب هو مما يمنعها عن اداء وظيفتها على نحو كامل — ويعرف الانسان أنه مريض القلب عندما تكون الدنيا أحب اليه من الله ورسوله فهذه

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس «الهوى والبلاء والشهوة معجونه بطينه بنى ادم كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) كشف المحجوب ج ٢٢ ص ٤٤٠

(٣) أبو طالب مكى الغنيه لطالبى أهل الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ٢ ص ١٨٣ .

(٤) راجع الرسالة القشيريه ، ص ٥٤

علامة وعرض من أعراض مرض القلب ـــ ومرض القلب هو مما لايعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه مخالفة الشهوات . وهو نزع الروح ، فان وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه ، فان الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه فلهذا صار الداء عضالا » [١] .

ويذكر جلال الدين الرومى فى المجلد الأول من ديوانه « المثنوى » أن النفس خصم باطنى عنيد يقاوم كل أنواع الاصلاح . فاذا ماأدركت أن الحرب عليها ضارية كمنت انتظارا للحظة تنقض فيها على صاحبها ، فاذا ماواتتها فرص انهيار الروح خرجت من مكمنها كالأفعى التى تبتلع فريستها .

يقول شعرا «

أيها الملوك اننا قتلنا الخصم الظاهرى

وبقى خصم أمر منه فى الباطن

هذه النفس جحيم والجحيم أفعى

اذ لايعتريها نقص وضعف ولو بطغيان البحار

فان هى احتست سبعة أبحر

فلا ينطفىء لهيب قلبها المحرق للخلق

هل شبعت ؟ هل تقول شعبت ؟.... تقول لا ولن

هذه النار وهذا لظاها وهذا احراقها

صيرت العالم لقمه وابتلعتها

ولكن معدتها تنادى هل من مزيد » [٢]

---

(١) أبو حامد الغزالى ، احياء علوم الدين ، تحقيق بدوى طبانه جـ ٣ ، ص ٦١

(٢) قاسم غنى (الدكتور) ، تاريخ التصوف الاسلامى ترجمة صادق نشأت ، القاهرة ١٩٧٣ م ، جـ ١ ، ص ٤٢٦

وهكذا أدرك الصوفيه كيف تكون النفس قاتلة للخير وكيف تكون افات قلوبهم وأمراض نفوسهم ، فراحوا يصفون لها الدواء ، فهم يعالجون البخل ببذل المال لاالى الحد الذى يصير فيه الصوفى مبذرا ، انما بالاعتدال بين التبذير والتقتير .

وهم يقللون من الطعام لأن فى قلة الطعام موت الشهوات ، كما أنهم يسهرون ليلهم فى العبادات فيتولد من قلة المنام صفو الارادات وهم يميلون إلى الاقلال من الكلام والسلامة من افات اللسان — حتى تنقطع النفس عن الظلم والأنتقام وتصبح نورانية روحانية حقيقة فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسالك الطاعات » (١)

وتختلف رياضة النفس لكل انسان حسب اختلاف أحواله فى الدنيا الا أن الصوفية يعرفون لكل داء دواء وهم يستعينون على ذلك بالجوع والصمت والسهر والعزله ، ومخالفة النفس باعتباره رأس كل خطيئة ، وسوف نعرض لبعض هذه الرياضات التى يقوم بها القوم لتقويم نفوسهم وعلاج أمراض قلوبهم .

---

(١) احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٦٤

See Evelyn underhill; Astudy in the nature and development of mans Spiritual Consciousness; london; 1949.

ثانيا : العزلة فى المجتمع

اخترنا أن يكون العنوان هنا « العزلة فى المجتمع » حتى لايفهم أن مايشده الصوفية من عزلة انما هى عزلة سلبية تنأى عن كل الأنشطة الدنيوية وتلجأ إلى زوايا بعيدة عن نشاط الجماعة لتكتفى بممارسة نوع من العبادات الشاقة والمستمرة .

فمن الناحية النظرية تعد العزلة وعى عميق بالأنا وطبقا للدراسات النفسية يكون الوعى بالذات « الأنا » متضمنا الشعور بالآخرين . ورغم أن حياة الانسان فى واقعها تعبير عن « الأنا » الا أنها تفترض وجود الآخرين وتشعر بهم كما تفترض وجود الكون وتشعربه ، وكذلك تؤمن بوجود الله وتكرث نفسها فى طاعته .

ويعتقد بعض الباحثين أن انعزال الذات انعزالا مطلقا ورفضها الاتصال بأى شيىء خارجها أو بالأنت عبارة عن انتحار ، ويصبح وجود الأنا مهددا كلما أنكرت الوجود الكامن فيها لذات أخرى أو للأنت .....

ويرى « فخته » أن الأنا الفردية غير أصيله ذلك أن هذا الانعزال المبالغ فيه غير قائم أصلا لأن « الأنا » « كلية أكثر من أن تكون فردية » [١] .

أن الشعور الذاتى يوجود الأنا لايتأتى للذات الا من خلال نشاطها الذى يقوم على أساس وجود شيىء آخر أو شخص آخر .... وهى أولية وبديهية كما يعتقد « برجسون » [٢] والوعى كامن فيها شأنه فى ذلك شأن اللاوعى . ان مايتفق علية الباحثون هو أن مصير « الأنا » ومايوجد بها من وعى ذاتى فردى عرضه للانقطاع السريع فالعزلة تهدد تكامل الذات فى حين أنها تسعى دائما إلى تكاملها ولايكون التكامل بالعزلة بل بالتغلب على العزلة ومشاركة الجماعة .

---

(١) نيقولا برديائف ، العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٢ م ، ص ٩١

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٩٠

والعزلة المطلقة مرادفة للجحيم وللعدم ولايمكن تصورها الا عن طريق – السلب والعزلة النسبية تقتضى العجز والسلب ، ولكن لها أيضا جانب ايجابى حينما تعلو على ماهو مألوف ونوعى ، وعلى العالم الموضوعى ... وأفضل مافى العزلة أنها تمثل حالة عليا من حالات الأنا.... ودرجة الانفصال فيها لاتكون عن الله والعالم الالهى وانما تكون عن الروتين « الاجتماعى اليومى للعالم الوضيع » (١) ولابد أن هذه أحد مراحل النمو الروحى للانسان .

أن الأنا تعى تماما أنها عندما تريد التغلب على عزلتها فان عليها أن تقوم بأنشطة اجتماعية مختلفة ، ومن بين هذه الانشطة مايعد نشاطا أخلاقيا ساميا ومنها مايتصل بأنشطة غريزية متدنية . وإلى جانب وعى الذات بالأنا الفردية ووعيها بالأنا عندما يتصل بالأنت فانها تعى أيضا ضرورة حماية نفسها من طغيان نزوات الجماعة وخطيئة الأنت التى لاتقف عند حد الأنت بل تتعداه – لتهلك الأنا .

ولقد جاءت العزلة فى القرآن الكريم لتعلى من شأن العزلة عندما تكون فى حماية الأنا من طغيان الأنت وفساد الآخر – فلقد اعتصم خليل الله إبراهيم عليه السلام بالعزلة واستعان بها على قومه عندما أصروا على عبادة الأصنام ، فكفاه الله شرهم وعصمه من بطشهم ، وأثابه على ذلك بأن منحه ذرية من الأنبياء – قال تعالى ﴿ **فلما أعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا** ﴾ (٢) .
وقوله تعالى ﴿ **وأعتزلكم وماتدعون من دون الله ...** ﴾ (٣) .

وفى قصة أهل الكهف الدليل القاطع على أن العزلة تقترن بالنجاة من أهل الباطل وصرف شرهم ، ودفع بأسهم لقوله تعالى ﴿ **واذا اعتزلتموهم ومايعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا** ﴾ (٤) .

---

(١) العزله والمجتمع ، ص ٩٤

(٢) سورة مريم ، الآيه ٤٩

(٣) سورة مريم ، الآيه ٤٨

(٤) سورة الكهف ، الآيه ١٦

وفى قصة موسى مايشير الى اعتزاله قومه حين ظهر له عنادهم وكفرهم ، واصرارهم على عدم الاقبال على الدعوة ، قال تعالى ﴿ **وأنى عذت بربى وربكم أن ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون** ﴾ (١) .

وجاءت العزلة فى القرآن أيضا بمعنى العكوف على العبادة فى المساجد طلبا للطهارة والنقاء والأنس بجوار الله لقوله تعالى ﴿ **وأن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ (٢) .

ويقترن العكوف بالمساجد بالبعد عن المخالطة للآخرين ، وكذلك الكف عن ارتكاب أعمال جائزة ومشروعة فى غير أوقات العكوف ومحرمه فى وقت العكوف وكأنما هناك ضرورة للتوقف عن ممارسة أعمال هى فى حقيقة أمرها مذمومة لارتباطها بالغريزة والهوى وإن كانت مباحة لضرورة خاصة علمها الله وحددها أزلا. يقول تعالى ناهيا عن مباشرة النساء ﴿ **ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾ (٣) .

وتأتى العزلة فى الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبين أن العزلة من أجل العبادة ليست انقطاعا عن الآخرين وتحصنا بالأنا ، وكفا عن العمل لتوقف الاحساس بقيمة الآخر ، بل هى عزلة فى المجتمع لايفارق فيها المعتزل الخلق — يقول رسول الله ﷺ « ان من خير معايش الناس كلهم رجلا أخذا بعنان فرسه فى سبيل الله ، ان سمع قرعه كان على متن فرسه يبغى الموت أو القتل فى مظانه ، أو رجلا فى غنيمة له فى رأس من هذه الشعاف وفى بطن وادى من الأدويه ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس الا فى خير » (٤) .

---

(١) سورة الدخان ، الآيه ٢١

(٢) سورة البقرة الآيه ١٢٥

(٣) البقرة ، الآيه ١٢٥

(٤) أبو القاسم القشيرى ، الرسالة القشيريه ، طبعة البابى حلب ، ص ٥٥

فالاعتزال انما يكون توجها الى الله والجهاد فى سبيله ، والذين يؤثرون الاعتزال انما يؤثرونه اتقاء لأذى الناس بالعبادات — من صلاة وزكاة وكفايه للنفس بالعمل — حتى لو كان الاعتزال فى شعبه من شعب الجبال — وهو اقتران العزله بالعمل المثمر — والعبادة الحقة .

والعزلة عند الفتنة سنه الأنبياء وعصمة الأولياء وسيرة الحكماء — فقد اعتزل النبى ﷺ قريشا لما آذوه — فدخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة الى الحبشه ، من هنا تبدو العزله واجبا على المسلم وأكثر وجوبا عندما يصبح الناس وقد اعتادوا نقض عهودهم وعدم الوفاء بآماناتهم وتكون الخيانه ويكون الغدر من شيمهم وفى هذا الحال يجوز التخلى عن مخالطة العامة لعظيم ضررهم قال رسول الله ﷺ « اذا رأيتم الناس مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا — وشبك بين أصابعه — قال عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت كيف أفعل عند ذلك جعلنى الله فداك فقال صلى الله عليه وسلم « الزم بيتك واملك عليك لسانك ، وخذ ماتعرف ، ودع ماتنكر ، وعليك بأمر خاصة ، ودع عنك أمر العامة » (١) .

ثم أن رسول الله ﷺ يجعل من العزلة أفضل دواء لأعظم داء يصيب الأمة ذلك عندما تتشعب مطالبه الناس وتزيد عن امكانيات ذويهم فيبدأ البعض فى كسب عيشه عن طريق المعاصى ، وعندئذ يكون هلاك الانسان على يد أقرب الناس له لأنهم يكلفونه مالا يطيق ، فيحاول أن يكفيهم فلا يجد ذلك الا فى معصيه — قال رسول الله ﷺ ليأتين على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه ، الا من فربدينه من قرية إلى قرية ، ومن شاهق الى شاهق ومن حجر الى حجر ، كالثعلب الذى يروغ ، قالوا ، ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصى الله عز وجل ، فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبه — قال : كيف ذاك يارسول الله (ﷺ) وقد أمرتنا بالتزوج ؟ قال لأنه اذا كان ذلك الزمان

---

(١) الجامع الكبير . ٢ /٩٧٢ . بن حجر ، لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ١٣١٧ راجع ايضا .
الحافظ بن سيمان حمد بن محمد البستى ، العزلة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ص ١٤

كان هلاك الرجل على يدى أبويه ــ فان لم يكن له أبوان فعلى يدى قرابته : قالوا ، وكيف ذلك يارسول الله قال ، يعايرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالايطيق حتى يورده موارد الهلكة » (١) .

وهكذا يتغير حال المؤمن بتغير الزمن ، وكذلك بتغير حال الجماعة « الاسلامية » ، وتتوافق الدعوة مع مقتضى الحال ، اذا أن الزواج الذى يعد مطلوبا فى الظروف العادية ، يصبح منبوذا » فى حالة تكالب الناس على الشهوات ، وسيرهم فى طريق المعصية ــ وهو نوع آخر من أنواع العزلة يكون البعد فيها عن المجتمع الكبير درجة ثانية من درجات العزلة وتكون الدرجة الأولى من العزلة هى فى هروب المسلم بدينه نجاة من أهله وولده وزوجه .

وتشتد الحاجة الى العزلة عندما يسود الهرج ، ولايأمن الانسان جليسه قال عبد الله بن مسعود ذكر رسول الله ﷺ الفتنة وأيام الهرج قلت وماالهرج ؟ قال حين لايأمن الرجل جليسة ، قلت فيم تأمرنى ان أدركت ذلك الزمان ؟ : قال تكف نفسك ويدك وأدخل دارك ــ قال يارسول الله أرأيت أن دخل على دارى ؟..... قال فأدخل مسجدك وأصنع هكذا وقبض بيمينه على الكوع ــ وقل ربى الله حتى تموت على ذلك » (٢) .

وهناك اتجاها روحيا يرى أن الانسان اذا وجد فى نفسه وحشه من الوحدة وميل الى الناس ، فانه يكون خاويا مفلسا من الايمان ، لأنه بالميل الى مجالسه رفاق السوء يملأ قلبه بهم ويعمره بمعاصيهم بينما لايستوحش مع الله من عمر قلبه بحبه (سبحانه وتعالى) وأنس بذكره ، وألف مناجاته بسره ، وشغل به عن غيرة فهو مستأنس بالوحدة ، مغتبط بالخلوة يقول أحد العارفين : « ويأنس من وحدة العارف . ويوحش من وحدة الجاهل » وقال بعضهم : الاستئناس بالناس من علامات الافلاس . (٣)

---

(١) جاء فى الاتحاف ، ج ٦ ، ص ٣٥٤ راجع العزله ، ص ١٦

(٢) أخرجة السيوطى فى جامع الجوامع (٥٣٥/٢ مسانيد) راجع العزلة ، ص ١٧

(٣) العزلة ، ص ٢٣

وهناك نوع مكروه من العزله ، وهو ذلك النوع الذى قصدت به الايحاش لأخيك وتعمدت الاضرار به ، والأخلال بحقوقه فى منع الكلام ، ورد التحيه والسلام ،

فوائد العزلة : ــ

(١) ومن فوائد العزلة التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة ، وملكوت السموات والأرض ، فان ذلك يستدعى فراغا ولافراغ مع المخالطة . فالعزلة وسيلة اليه ــ ويرى أبو حامد الغزالى [1] « أن العزلة كانت وسيلة النبى ﷺ فى البعد عن الاشتغال ــ بالتفكير فى مخالطة الناس ، الأمر الذى قد يكون سببا فى قيام الحجب التى تحجبه عن ذكر ربه ، لذلك كان ﷺ يتبتل فى غار حراء وينعزل اليه حتى قوى فيه نور النبوه » [2] .

(٢) ومن فوائد العزلة أيضا التخلص من المعاصى التى يتعرض لها الأنسان بالمخالطة كالغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومساوقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثه التى يوجبها الحرص على الدنيا ، والعزلة تمكن الانسان من النجاة من الأمور المهلكة للدين ، كالغيبة والنميمة والتفكه بالحديث بأعراض الناس ــ فانها عادة الناس كافة . ومخالطة المغتابين قد تعرضك لسخطهم وغضبهم اذا لم توافقهم ، فان خالطتهم ووافقتهم تعرضت لسخط الله وغضبه .

(٣) ومن فوائد العزلة أيضا الخلاص من الفتن والخصومات وصيانه الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لاخطارها « فقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن ــ وخصومات ، فالمعتزل عنهم فى سلامة منهم ــ وقد

---

(١) أبو حامد الغزالى . احياء علوم الدين ، تحقيق بدوى طبانه ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٧

(٢) من حديث عائشة « كان ﷺ يتبتل فى جبل حراء ، وينعزل اليه » راجع هامش الاحياء ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٧

قدمنا قول رسول الله ﷺ أنه سيأتى زمانا لايأمن فيه المرأ على دينه — ويكون المرأ مطالبا بالفرار من الدنيا بدينه حتى يتجنب مخاطر العيش على المعصية . روى أبو سعيد الخدرى أنه صلى ﷺ قال « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق » [١] .

(٤) والفائدة الرابعة تكمن فى الخلاص من شر الناس فانهم مرة يؤذونك بالغيبة ومرة بسوء الظن ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعدون بالوفاء بها وتارة بالنميمة أو الكذب — فربما يرون منك من الأعمال والأقوال مالاتبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصه للشر ، فاذا اعتزلتهم استغنيت عن التحفظ عن جميع ذلك لذلك حرص البعض على كتمان أقوالهم ، وستر أحوالهم ،

يقول قائل

إخفض الصوت إن نطقت بليل ... وألتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو ... بقبيح يكون أو بجمال

وقال عمر رضى الله عنه ، فى العزلة راحة من قرين السوء وقيل لعبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينة فقال مابقى فيها الا حاسد نعمه ، أو فرح بنقمة » [٢] ولم كان الانسان لايخلو فى دينه ودنياه وأخلاقه من عورات ان بدت للناس هددت سلامه وسلامته كان لابد من سترها بالعزله والبعد عن العامة وجليس السوء .

---

(١) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣

(٢) احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤

(٥) الفائدة الخامسة : أن ينقطع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس فان رضا الناس غايه لاتدرك ـ وقد قال الشافعى أن أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام ـ والانقطاع عن الناس فيه انقطاع عن النظر الى مافى أيديهم والطمع فيه ، كذلك هو يصرف الانسان عن الدنيا وزينتها .

قال تعالى ﴿ ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم ﴾ (١) ويقول رسول الله ﷺ « انظر الى من هو دونكم ، ولاتنظروا الى من هو فوقكم فانه أجدر الا تذدروا نعمه الله عليكم » (٢) .

(٦) الفائدة السادسة :

الخلاص من مشاهدة الثقلاء » (٣) والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم فان رؤية الثقيل شيىء بالغ التأثير على النفوس / وهذه القاعدة تشير الى أن من بين الناس أشخاص جبلوا على الحاق الأذى بالناس والتمتع بالاضرار بهم والعزلة هى الوسيلة الفعالة للخلاص من أمثال هؤلاء والنجاة من المحاسدة وسوء الظن والنميمة . ولايقلل من أهمية العزلة كون المخالطة وسيلة للاستعانة بالغير فى الأمور الدنيوية والدينية الشرعية وكما يحتاج الانسان للعزلة يحتاج للمخالطة فكلاهما يكون ضروريا لأمور لاتتم الا باحداها .

---

(١) سورة الحجر ، آيه ٨٨

(٢) من حديث مسلم عن أبى هريرة ـ هامش احياء علوم الدين ، ص ٢٣٥

(٣) احياء علوم الدين ، ص ٢٣٧

ثالثا : (جوع الصوفية وكف الشهوة)

لعل أحدا من الصوفية لم يتنبه إلى أنه يقدم حلا روحيا لمشكلة اقتصادية عندما يتحدث عن ضرورة الجوع باعتباره ركنا هاما من أركان مجاهدة النفس ، كذلك ينظر القوم إلى الجوع كوسيله من وسائل التصفية فى طريق الوصول إلى الكمال الروحى وهو امساك عن الأكل وعن متابعة مغريات الشهوة . وابتعاد عن كل مايشكل حجابا روحيا وفكريا .

وشهوة البطن هى مما يعوق الفهم ويعطل الفكر ويقود الى مهاوى الرذيلة لذلك كان الامساك عن الطعام بقصد تفجير ينابيع الحكمة فى النفس .

والصوفية لم يكونوا فى هذا بدعة بل هم قد ساروا على نهج رسول الله ﷺ الذى فضل الجوع على ملأ البطن — فقد ذكر عنه أن فاطمة رضى الله عنها جاءته بكسرة خبز من قرص صنعته من الشعير فقال انها « أما أنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » [١] . فالجوع يعمر الباطن والشبع يعمر البطون ، فمن يقضى ىلعمر فى عمارة الباطن ليتفرد للحق ، ويتجرد من العلائق كيف يستوى مع من يمضى عمره فى عمارة بطنه وخدمة أهواء الجسد » [٢] .

وينظر القوم إلى الجوع لاباعتباره امتناع عن الأكل بل باعتباره طعام الملكات التى لايصلح الطعام الطبيعى طعاما لها . فالجوع طعام الصديقين وسلك المريدين ، وقيد الشياطين بعد قضاء الله وقدره — وخروج آدم من الجنه — وابتعاده عن جوار ربه كان من أجل لقمه » [٣] .

---

(١) أبو القاسم القشيرية ، طبعة البابى الحلبى القاهرة ص ٧٢

(٢) الهجويرى ، كشف المحجوب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، جـ ٢٢ ص ٥٧٠

(٣) كشف المحجوب ، جـ ٢ ص ٥٧٠

فالجوع اذن مفتاح الباطن ، والشبع مفتاح الدنيا لأنه يحرك شهوة العبد التى منها شهوة الفرج .

والجوع فهم وتفرغ بالقلب للخيرات ، والشبع انغلاق للعقل واظلام للقلب وافتضاح للشهوة .

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ **فلنبلونكم بشيىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ [1] .

فالصبر على الجوع ابتلاء يهذب النفس ويطهر البدن ويفتح بابا بين العبد والرب .

والجائع لايكون جائعا اذا كان ممنوعا أو مقهوراً وشرط الجوع أن يكون اراديا فالجائع هو التارك للأكل لاالممنوع منه ، وهو الذى يجد الطعام أمامه ويتحمل عبىء تركه ومشقة الامتناع عنه . وهو بالجوع يقيد شيطانه ويحبس هوى نفسه « ومن قلة الطعام موت الشهوات لأن فى كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره نور الحكمة . فالجوع يعمر الباطن والشبع يعمر البطون ويبعد من الله كما قال رسول الله ﷺ نوروا قلوبكم بالجوع وجاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش وأديموا قرع باب الجنه بالجوع فان الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله تعالى من جوع .

يقول الكتانى « من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء » نومه غلبه ، وكلامة ضرورة ، وأكله فاقة [2] .

ويقول يحيى بن معاد الرازى « جاهد نفسك بالطاعة والرياضة ، فالرياضة هجر المنام ، وقلة الكلام ، وحمل الأذى من الأنام والقلة من الطعام ... وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه [3] ، ماشبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربى ، ومارويت

---

(١) البقرة ، الآيه ١٥٥

(٢) أبو حامد الغزالى كاشفة القلوب ، طبعة طنطا مصطفى ناج ، ص ١٣

(٣) كشف المحجوب ، جـ ٢ . ص ٥٧٠

اشتياقا إلى لقاء ربى لأن فى كثرة الأكل قلة العبادات ، لأنه اذا أكثر الانسان الأكل ثقل بدنه وغلبته عيناه — وفترت أعضاؤه فلايجيء منه شييء وان اجتهد فيكون كالجيفه » .

وهكذا يبدو الجوع طريقا موصلا إلى الله سبحانه وتعالى ذلك أن الشبع وكثرة الأكل مدعاة لثقل البدن ، وتراخى الأعضاء والكسل الذى يعوق عن ممارسة العبادات ، والبعد عن الطاعات — وهو مايشير اليه أبى العباس — القصاب رحمه الله بقوله « طاعتى ومعصيتى منوطتان بفعلين ، فحينما آكل أجد فى نفس جذور المعاصى ،عندما أكف عن الطعام أجد فى نفسى أصل كل الطاعات » (١) .

ونظرا لأن الجوع ينبه مراكز الروح ويقوى الملكات التى تعين الانسان على عباداته وطاعته فقد مدحه رسول الله ﷺ بقوله « بطن جائع أحب إلى الله من سبعين عابدا غافلا » (٢) والاشارة هنا إلى الجوع المقترن بالطاعة والعبادة ورياضة النفس وكبح جماحها .

ويذكر الهجويرى أن الجوع شرف كبير ، وهو محمود عند الأمم والممالك لأن خاطر الجائع يكون أحد من وجهة الظاهر ، وتكون قريحته أكثر تهذيبا ، وجسده أصح . ومن هيأوا أنفسهم بالرياضة لايكون لهم شرة كبير لأن الجوع للنفس خضوع وللقلب خشوع ، فجسد الجائع خاضع ، وقلبه خاشع لأن القوة النفسانية تتلاشى به (٣)

وهكذا يلمس القوم أهم المعانى النفسية المصاحبة للجوع ، ذلك أنه من الثابت أن القلب يصفو بالجوع ، والنفس تشتد بالشبع وتقوى الحيوانيه . ويجد الهوى تربية أكثر فتكون صولته فى الأعضاء أكثر انتشارا ويظهر فى كل عرق من انتشاره حجاب يحجب العبد عن ربه » (٤) .

---

(١) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٥٧١

(٢) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٥٧١

(٣) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٥٧١

(٤) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٥٧١

وهكذا يقترن الجوع بضعف الهوى وقوة العقل ، وانقشاع الحجب ، ووضوح البراهين وظهور الأسرار ، واتصال الطاعة .

ومن سلوك الصوفية فى الجوع الاشتداد على النفس وكبحها وسوقها على غير هواها ، وعدم الانصياع لشهوة الطعام مهما كان شهيا .

وهو أمر يحتاج اليه شباب الجيل المعاصر الذين لايمكنهم التحكم فى شهواتهم ومن بينها شهوة البطن . ولو أمكن التحكم فى شهوة البطن لوجدت السلع فى الأسواق بكثرة ولأمكن التحكم فى أسعار مواد الغذاء كما أنه من الممكن أن يكون هناك فائض دون أن يكون عبئا على الانسان المسلم .

ولنا فى زهاد المسلمين وصوفيتهم أمثله عظيمة على الترقى الروحى وكبت شهوة الطعام فهذا مالك بن دينار [1] كان يمشى فى سوق البصرة ، فرأى التين فأشتهاه فخلع نعله وأعطاه الى البقال وقال أعطنى التين ، فرأى البقال النعل وقال — لايساوى شيئا فمضى مالك ، فقيل للبقال أليس تعرف من هذا ، قال لا ، قيل هو مالك بن دينار ، فحمل البقال الطبق على رأسى غلامه وقال له إن قبل هذا فأنت حر ، فعدا الغلام خلف مالك بن دينار وقال له أقبل هذا منى فأبى فقال أقبل فان فيه تحريرى ، فقال له مالك بن دينار ان كان فيه تحريرك ففيه تعذيبى ، فألح الغلام عليه فقال مالك حلفت لأبيع الدين بالتين ولا آكل التين الا يوم الدين .

وحكى عن مالك بن دينار أيضا أنه فى مرض الموت كان قد اشتهى قدحا من العسل واللبن ليثرد فيه رغيفا حارا ، فمضى اليه الخادم وحمل اليه القدح فأخذه مالك ونظر فيه ساعة وقال يانفس قد صبرت ثلاثين سنه وقد بقى من عمرك ساعة ورمى القدح من يديه وصبر حتى مات .

وهذه هى أحوال الأولياء والأنبياء والصديقين التى لوصح لنا شيىء منها لكان لنا فيه غناء عن العالمين ولما تعرضنا لضغط الدرهم والدينار ولما أسرتنا مشتهيات أنفسنا التى صرنا لها عبيدا مكبلين بأغلال الشهوة ورق — الهوى .

---

(١) مكاشفة القلوب ص ١٣

رابعا : الصمت

١ - ضرورة الصمت :

لاحظ الصوفية المعتدلين من أمثال أبونصر السراج ، وأبو القاسم القشيرى وأبو حامد الغزالى وغيرهم أن خطر اللسان عظيم وأن آفه اللسان أنه يضرب فى كل مجال ولايتوقف عن مقال فهو ينطلق فى الكذب ، والنفاق ، والرياء والخوض فى الباطل ، كما أنه ينطلق فى الجدال والخصومة ، كذلك ينطلق فى الفحش ، والسب واللعن ، والغناء ، والشعر ، والمزاح ، والغيبة والنميمة ٠ ثم أنه قد يكون مركب الخير والداعى إليه والحاض على ترك المحرمات ، والزاجر اليقظ الداعى إلى مراعاة حدود الله ، كما أنه قد يكون الذاكر لله المسبح بحمده والشاكر الداعى له ، كذلك فباللسان يقرأ القرآن ويرفع الدعاء وتتم الصلاة ٠

ولما كان أكثر الكلام - خوض فى الباطل وهتك للأعراض وفضح للأسرار كان خطره عظيم ، وفيه قال أبو حامد الغزالى " ان اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغربية ، فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه ، إذ لايستبين الكفر والايمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية فى الطاعه والعصيان ، ثم أنه مامن موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم ، مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل مايتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ...... واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولالمجاله منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبه اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه الى شفا جرف هار "(١) ٠

(١) أبو حامد الغزالى ، احياء علوم الدين ، تحقيق د ٠ بدوى طبانه ، ج ٣ ، ص ١٠٤

من هنا يرى الكثيرون أن الصمت وسيلة فعاله للنجاة من آفات اللسان ، ذلك أن الانسان قد لايستطيع السيطرة على نوعية الكلام فينطلق لسانه بما يسيء للأخرين أو يهتك أعراضهم أو يفضح أسرارهم . كما قدمنا فيكون الصمت عن الكلام وسيلة من أهم وسائل الافلات من الوقوع فى المعصية .

فاذا لاحظنا أن الفتن والخصومات بل والحروب غالبا مايكون مصدرها كلمة أو إشاعة تنطلق دون تعقل فتعود بالهلاك والدمار على الشعوب والأمم ويهلك الناس أفرادا وجماعات نتيجة لمثل هذه الكلمات الضالة المضلة - لكل هذا كان الصمت وسيلة فعالة للنجاة من هذه المهالك ، لذلك كان القرآن الكريم وكان الحديث النبوى مصدرين أساسين من مصادر الدعوة الى الصمت والكف عن الكلام فى معصية ، لذلك تنوعت المعانى السامية التى إقترنت بالصمت ورفعته إلى مستوى العبادة .

٢ - الصمت فى القرآن والحديث :

الصمت فى القرآن الكريم هو نوع من الصوم والقنوت والخضوع للأمر الالهى القاضى بالتوقف عن الكلام لقوله جل شأنه فى سورة آل عمران " يامريم اقنتى لربك واسجدى وأركعى مع الراكعين "(١) ثم قوله جل شأنه فى سورة مريم " فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا "(٢) ، وهذا الأمر بالصمت كان عن علم إلهى مسبق بما كان من أمر قوم مريم الذين رموها بالباطل وقالوا أنها جاءت شيئا منكرا " وهذا قول إفك وبهتان والنجاة منه كان بالصوم

(١) سورة آل عمران ، الآية ، ٤٣ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٢٦ .

عن الكلام - لنفسح مجالا للمعجزة الالهية التى أنطقت بالحق من كان فى المهد صبيا ليدفع حديث الأفك والنميمة .

ثم أن الصمت كان آية من آيات الله التى بشر بها الله نبيه زكريا بالاستجابة لدعائه بمنحه غلاما صالحا وقد كان ذلك مستحيلا - يقول تعالى " قال ربى اجعل لى آيه ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، وأذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار "[1] .

فهو أمر بالتوقف عن الكلام إلا إذا كان ذكرا وتسبيحا لله جل شأنه .

فاذا كان الكلام صادر عن رب العزة وإذا كان قرآنا وجب الصمت لقوله تعالى " واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلم ترحمون "[2] .

فالرحمة نتيجة من نتائج صمت الخشوع - والصمت فى هذه الحالة ليس أمرا موجها الى معشر الانس فقط وإنما تصمت الجن فى هذا المجال وتنصت لقوله جل شأنه " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا "[3]

والكلام فى حضرة الرحمن لايكون إلا باذن منه جل شأنه لقوله " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا "[4] .

ويقرن الرسول صلى الله عليه وسلم بين الصمت والعبادة فيقول " ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق "[5] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤١ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ٢٠٤ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية ٢٩ .
(٤) سورة النبأ ، آية ٤٠
(٥) حديث مرسل ذكر منسوبا لصفوان بن سليم وجاء فى كتاب الصمت ، للحافظ آبى بكر بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا ، تحقيق د. محمد أحمد عاشور القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٤٣ .

كذلك وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بين عباده " الصوم " والصمت فهو يقول فى وصف فتاتان صامتا عن الطعام ولم تكفا عن الخوض فى سيرة الناس وأعراضهم قال الرسول لمحدثته - وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس وطلب اليه أن يطلب منهما أن يتقيئا . فقاءت كل واحدة منهما علقه من دم فلما أخبر النبى بذلك قال والذى نفس محمد بيده لوبقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار "[(١)] .

ولقد أرتبطت كثرة الكلام بالوقوع فى الخطأ ذلك أن فى كثرة الكلام مايذهب بمودة الرجل ووقاره وقد قال عمر بن الخطاب " من كثر كلامه كثر سقطه "[(٢)] .

لذلك كان من الضرورى أن ينظر المؤمن كيف يستقيم لسانه لأن استقامه اللسان فيها سلامة البدن والجوارح ومن سلمت جوارحه من المعاصى سلم دينه - وقد قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه " اللسان قوام البدن فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح ، واذا اضطرب اللسان لم يقم جارحه"[(٣)] .

ومن هنا كان من الضرورى أن يمسك المسلم لسانه ولايكثر الكلام نجاه مما قد يقع فيه من قال السوء - وفى هذا المعنى ذكر عن رسول الله صلى عليه وسلم قوله " رحم الله عبدا قال خيرا " فغنم أو سكت عن سوء فسلم "[(٤)] .

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور وعزاه الى ابن مردويه والبيهقى ، ٩٦/٦ راجع الصمت ص ١٠٦ .

(٢) الصمت ، ص ٥٣ ، ورواه الهيثمى مطولاً ،كتاب الزهد . ورواه الطبرانى فى الأوسط ٣٠٢/١٠ .

(٣) كتاب الصمت ، ص ٥٩/٥٢ .

(٤) رواه الهيثمى مطولا بلفظ " . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويشهد أنى رسول الله فليقل خيرا " ليغنم أو ليسكت عن شر فيسلم وقال " رواه الطبرانى وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف " ٢٩٩/١٠ ورقم ٤٥،١٨ ، ثم راجع الصمت ص ٦٥/٥٤.

ونحن نستنتج من كل هذا أن الصمت ركن من أركان الايمان بالله واليوم الآخر خصوصا عندما يكون سكوت عن الكلام فى هوى لقوله صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "(١) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يوضح أن اللسان سبب رئيسى من أسباب دخول الناس إلى النار فهو يقول فى الرد على معاذ بن جبل حين يسأله " يارسول الله أنؤاخذ بما نقول - فيقول - ثكلتك أمك - وهل يكب الناس فى النار على منأخرهم الا حصائد ألسنتهم "(٢) .

ولما كان اللسان على هذه الدرجة من الخطورة كان قائدا يقود الأعضاء والجوارح إلى التهلكة ، ذلك أنه يوقع بها فى المعاصى ، كما أنه يعد سلاحا بغيضا يسلطه الانسان على غيره من بنى البشر فسبب لهم أذى بالغا ولذلك إقترن حسن إسلام المسلم بسلامه الناس من شرور لسانه ونجاتهم من هذا السلاح الفتاك لقوله صلى الله عليه وسلم " ان أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه "(٣) .

وقوله " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ماكره ربه "(٤) .

---

(١) رواه الترمذى فى باب حفظ اللسان ، حديث ٢٥١٧ ، ٨٨/٨٧/١٧ ورواه أحمد فى مسنده ٢٥٩/٥ ٠ راجع أيضا الرسالة القشيرية أبو القاسم القشيرى ، ص ٦٢ ، راجع الاحياء ج ٣ ، ص ١٠٧ ٠

(٢) رواه النرمذى فى أبواب الايمان حديث ٢٧٤٩ : ٣٦٢/٧-٣٦٥ وابن ماجه فى كتاب الفتن باب كف اللسان ، حديث ٣٩٧٣ ، راجع أيضا الصمت ص ٣٧ ، الجزء الثالث من كتاب احياء علوم الدين ، ص ١٠٥ ٠

(٣) رواه الطبرانى ، ٢٩٩/١٠ راجع الصمت ، ص ٤١ ٠

(٤) رواه البخارى فى كتاب الايمان ، ٩/١/ ، ١٠ ، راجع الصمت ، ص ٤٣ ٠

وهذه الاحاديث تتفق ومعانى الآيات القرآنية فى قوله تعالى " لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس "(١).

وقوله تعالى " وقولوا للناس حسنا "(٢).

" والنجوى " هو الكلام بالسر وهو أشبه بالصمت ومع ذلك يذمه الخالق جل شأنه ويحض على البعد عنه ونركه لسوء مصير أولئك الذين يتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام لقوله جل شأنه : " ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءُوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصيرُ "(٣).

وقوله جل شأنه ناهيا عن هذا النوع البغيض من المناجاة " ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلاتتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى وأنقوا الله إليه تحشرون "(٤).

ثم يبين الله فى محكم كتابه كيف يكون هذا النوع من النجوى المذمومة من فعل الشيطان فيقول " إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا .."(٥).

وعن عقبة بن عامر قال يارسول الله ما النجاة ؟

---

(١) سورة النساء ، آية ١١٤.
(٢) سورة البقرة ، آية
(٣) سورة المجادلة ، الآية ٨
(٤) سورة المجادلة ، الآية ٩
(٥) سورة المجادلة ، الآية ١٠

قال : إحفظ عليك لسانك وليسعك بيتك "[1]

٣ - الصوفية والاجابة بالصمت :

لما كان الكلام على هذا القدر من الخطورة ولما أدرك الصوفية أن فى الكلام مايورد المرأ مورد التهلكة فى دينه ودنياه كانت دعوتهم الى الصمت ، فان كانت هناك ضرورة للاجابة فلتكن بالصمت فرب صمت خير وأفصح من الكلام ٠

وينشد نافى المعنى أبو جعفر القرشى[2]

استر العى ما استطعت بصمت — إن فى الصمت راحة للصموت

واجعل الصمت ان عييت جوابا — رب قول جوابه السكوت

اذا نطق السفيه فلا تجبه — فخير من إجابته السكوت

ومما يسترعى الانتباه أن القوم قد أدركوا المعنى النفسى الكامن وراء كثرة الكلام ذلك أنه لوحظ أن البعض يعشق الكلام فى كل حديث باطل حتى لايعود قادرا على الصمت ، بل انه يتعدى الحديث فى الباطل عن الآخرين الى الحديث عن عيوبه وعوراته الشخصية وكأنه لايطيق الصمت حتى ولوكان صمتا عن عيوبه وعوراته

يقول الأسود النخعى شعرا[3]

وأعلم علما ليس بالظن أنه — اذا زال مال المرء فهو ذليل

وإن لسان المرء مالم يكن له — حصاة على عوراته لدليل

(١) رواه الترمذى فى باب حفظ اللسان ، حديث (٢٥١٧) ٨٨/٨٧/١٧ ورواه أحمد فى مسنده ٢٥٩/٥ ، راجع أيضا الرسالة القشيرية ، ص ٦٢ ٠

(٢) راجع الصمت ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤، راجع أيضا عبد الوهاب الشعرانى الانوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ، الناشر ، دار جوامع الحكم القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٣٨

(٣) الصمت ، ص ٥١ ٠

كذلك يدركون من المعانى النفسية أن الانسان إما أن يزيد قدره بالكلام أو ينقص - فقد يظل المرء صاحب هيبة ووقار عند المستمع الى أن ينطق فإذا نطق كان الكلام شاهدا عليه .

وقد كان يقال كثرة الكلام تذهب بوقار الرجل ، " كذلك قيل من كثر كلامه كثر سقطه "[(١)] .

ويقول الأعور الشنى شعرا[(٢)]

وكأين ترى من ساكت لك معجب   زيادته أو نقصه فى التكلم .

ويذكرنا " ابوذر " على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الصمت هو أخف الأعمال على البدن وأثقلها فى ميزان خيرات المرء - يقول (ص) " الا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل على اللسان ، قلت بلى يارسول الله . قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك[(٣)] .

ومما يدل على عرفان الصوفية بالحال النفسى الذى يكون عليه الصامت وفضل السكوت على الكلام أن جماعة من المشايخ فضلوا السكوت على الكلام ومنهم الجنيد رحمه الله لقوله[(٤)] " العبارة كلها دعاوى - وحيثما يكون اثباء المعانى تكون الدعاوى كلها هدرا " .

(١) منسوب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، راجع الصمت ، ص ٥١ نقلا عن الطبرانى فى الاوسط ورواته ثقات ، ٣٠٢/١٠ .

(٢) الصمت ، ص ٥٥ .

(٣) يذكر أن سند هذا الحديث منقطع وقد رواه ابن ابى الدنيا - وان كانت فيه معانى حسن الخلق راجع هامش احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(٤) الهجويرى ، كشف المحجوب ، ترجمة د . اسعاد قنديل ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ ٢ ص ٦٠٠ .

ويرون أنه اذا انفتح الطريق على العبد استغنى عن الكلام لأن العبارة مقصود بها اعلام الغير ، والحق جل شأنه مستغن عن تفسير الأحوال :

يقول الجنيد [(١)] " من عرف الله كل لسانه " فمن عرف الحق بقلبه يعجز اللسان عن بيانه - فاذا احتاج السالك الى بيان شيء عن طريق اللسان فانه يكون محجوبا بكلامه عن ربه ٠

ويقول أحد المشايخ " كل من ليس له بيان عن حاله لاحال له لأن ناطق وقتك هو وقتك " [(٢)] ٠

ويعبرون عن ذلك شعرا بقولهم :

لسان الحال أفصح من لساني وصمتي عن سؤالك ترجماني [(٣)]

وقد كان " ابراهيم بن أدهم " يطيل السكوت فاذا تكلم ربما انبسط وقد أخبرنا " الفزاري " أنه أطال يوما السكوت - قال - فقلت لوتكلمت ؟ يسأل ابراهيم بن أدهم الكلام - قال الكلام على أربعة وجوه فمن الكلام كلام نرجو منفعته ونخشى عاقبته والفضل في هذا السلامة منه ، ومن الكلام كلام لاترجو منفعته ولا تخشى عاقبته فأقل مالك في تركه خفه المؤنة على بدنك ولسانك ، ومن الكلام كلام لاترجو منفعته ولاتأمن عاقبته فهذا قد كفى العاقل مؤنته ،ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته فهذا الذي يجب عليك نشر " [(٤)] ٠

(١) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٦٠١ ٠
(٢) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٦٠١ ٠
(٣) الصمت ، ص ٥٠ كذلك راجع ترجمة " ابراهيم بن آدهم " في قاموس الاعلام للزكلي ٠ جـ ١ ، ص ٣١ ٠

وهكذا يستبعد "ابراهيم بن أدهم" معظم الكلام لما له من ضرر على النفس والغير ويبقى على نوع واحد من الكلام هو الكلام الذى يرجى منه خيرا" ٠ وأما الكلام الذى يجلب الشر فانه يجلب النقمة على صاحبه ٠ بل قد يكون مهلكة للمتكلم اذ قد يفضح عن اسرار ماكان يود أن يعلمها أحد فاذا خرجت الكلمة انطلقت كالسهم القاتل الذى يرتد الى صدر صاحبة - ويقولون فى هذا المعنى (١)

رأيت الكلام يزين الفتى	والصمت خير لمن صمت
فكم من حروف تجر الحتوف	ومن ناطق ود لو سكت

هكذا يبدو أن زينه الصمت أفضل وآمن من الكلام الذى قد يتزين به البعض ٠

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هل يكون الصمت صمتا مطلقا وسلبيا أم أن هناك حالات يجب فيها الكلام ؟ وإذا كان هناك من ضرورة للكلام فمتى يتكلم المسلم وكيف يتكلم وبأى قدر من الكلام ؟

وللاجابة على هذه الاسئلة تجدر الاشارة الى أن القوم من الصوفية قد فطنوا الى أنه لايمكن أن يكون المسلم صامتا خائفا وجلا مترددا ويبدو هذا فيما قدموه من دراسة على نوعية الكلام وعدم سلبية الصمت ٠

٤ - الصمت ليس صمتا سلبيا :

الصمت فى وقته من خصال الرجال وهو وسلية المسلم للنجاة من آفات اللسان وهو عند الصوفية بصفة خاصة إفلات من الوقوع فى فضول الكلام ، والكذب والغيبة

---
(١) الرسالة القشيرية ، ص ٦٣ ٠

والنميمة - كذلك هو إفلات من الحسد والحقد والتباغض . كذلك يحاول الصامت أن يفلت من الوقوع فى الطعن أو اللعن - وهم فى هذا يتدبرون معانى الآيات القرآنية والحديث النبوى ففى " الغيبة " وذمها يقول جل شأنه " أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه "(١)

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام " اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا "(٢)

وقوله عليه السلام " لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولاتدابروا ولايغتب بعضكم بعضا فكونوا عباد الله اخوانا "(٣) .

والصمت يكون عن " النفاق " ، " والمراء " فالنفاق جبن وضعف وخوار فى الانسان يطلب المؤمن النجاة منه وكان مسلم بين يسار يقول " إياكم والمراء - يعنى الكلام فى نفاق - فانها ساعة جهل العالم وبها يبتغى الشيطان زلته "(٤) .

وفى النهى عن " اللعن " وذمه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا البذىء "(٥) .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

(٢) راجع الصمت ، ص ١٠٤ وقد رواه الطبرانى فى الأوسط - ٩١/٨ ، ٩٢ وهو فى احياء علوم الدين منسوب الى الصمت ، وابن مردوية فى التفسير ١٥٩٦/٩ ورواه السيوطى فى الدر المنثور ، ويبدو منسوبا الى ابن مردوية والبيهقى : ٩٧/٦ وهو ضعيف .

(٣) الصمت ، ص ١٠٣ عن أبى هريرة وأنس ٢٦/٢٥/٢٣/٨ .

(٤) جاء فى حليه الأولياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ، راجع الصمت ص ٨١ .

(٥) رواه البخارى فى باب الادب حديث ٣١٢ ، راجع الصمت ، ص ١٧٨ .

وفى كل هذه الأحوال لايكون الصمت صمتا سلبيا انما هو صمت إيجابى يتحاشى الوقوع فيما يهبط بأخلاق الانسان ويدنو به الى مرتبة الحيوان- مع ذلك لايمكن أن تكون مقاومة الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة والانحراف والاخلاقى، بالصمت فلابد من الكلام الاخلاقى احيانا وفى أهمية الكلام يقول سليمان بن عبد الملك " الصمت منام العقل والمنطق يقظته ولايتم حال الابحال (١) " .

ووجدت فى الحكايات أن أبابكر الشبلى كان يسير يوما فى " كرخ " بغداد فرأى أحد الأدعياء كان يقول " السكوت خير من الكلام فقال له سكوتك خير من كلامك لأن كلامك لغو .. وسكوتك هزل ، وكلامى خير من سكوتى لأن سكوتى حلم وكلامى حلم " (٢) .

ويلاحظ هنا أن السكوت لايكون الا اذا كان خيرا ، كما أن الكلام يجب ألا يكون الا فى خير - يقول الجلابى " الكلام على نوعين ، والسكوت على نوعين فالكلام منه الحق ومنه الباطل ، والسكوت منه حصول المقصود ومنه الغفلة ، فيجب على كل إنسان أن يمسك بخناق نفسه فى حال النطق والسكوت فاذا كان كلامه حقا فكلامه أفضل من سكوته ، واذا كان باطلا فسكوته أفضل من كلامه . واذا كان الصمت لحصول المقصود أو المشاهدة فهو أفضل من الكلام ، واذا كان سببه الحجاب والغفلة فالكلام أفضل من الصمت" (٣) .

والصمت إما أن يكون صمت باللسان وإما أن يكون باللسان والقلب معا . وهناك

---

(١) حلية الأولياء ، جـ ٧، ص ٨٢ - الصمت ، ص ٣٠١ .
(٢) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٦٠١ .
(٣) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٦٠٢ .

سكوت بالظاهر وسكوت بالقلب والضمائر ، وصمت اللسان فى مخالفة الهوى وصمت القلب فى موافقة الأحكام ، والرضا بما يجرى عليه من الأحوال والانبهار بما يصادفه من أسرار الكشف والمشاهدة - فصمت العوام بألسنتهم ، وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين من خواطر أسرارهم "(١) .

ويرتبط الصمت الصحيح عند سهل بن عبد الله بالتوبه الصحيحه ، ذلك أنه لاحظ أن فى الكلام الكثير مما يفسد على الانسان توبته مما سبق وقدمناه لذلك يقول " لايصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولاتصح له التوبه حتى يلزم نفسه الصمت "(٢) .

والتوبة إلى الله صمت عن الصمت وهى دعوة للكلام فى الذكر والالتفات الى الله والحديث معه بدلا من الحديث مع الغير يقول معاذ بن جبل " كلم الناس قليلا وكلم ربك تعالى كثيرا " لعل قلبك يرى الله تعالى "(٣) .

والكلام الذى يدعو اليه " معاذ " هنا هو الحديث فى الذكر ، والتسبيح والدعاء ، والصلاة والتقرب الى الحق جل شأنه .

وقد تكون الدعوة الى الصمت ناتجة عن وجود الصوفى المسلم فى حضرة من هم أحق منه بالكلام من شيوخه أو العلماء الدالين على الخير والفضيلة . ويكون الصمت فى هذه الحالة وسيلة من وسائل التعبير " فمن كان سكوته حياء كان كلامه حياة ومن كان سكوته له ذهبا كان كلامه لغيره مذهبا "(٤) فينبغى للطالب الربانى الذى

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٦٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ٦٣

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ٦٣ .

(٤) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٢ - ٦ .

خوضه فى العبودية وكلامة منتقش على روحه أن يكون صامتا إلى أن ينطق لسانه بما انتقش فى قلبه من الروبية كى يبدو كمال العبودية وكى تقع كلماته من قلوب المريدين موقع الصياد من الصيد الشارد ٠

وينفق القوم من الصوفية على ألا يسكت المريد على باطل أو يكتم شهادة حق أو يتردد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو يسكت عن ظلم سلطان جائر ٠

ويفضل الصوفية طرقا أخرى غير الكلام للتعبير عن مراداتهم ولنقل أفكارهم ومشاعرهم إلى الآخرين فهم قد يستخدمون الاشارة أو الايماء أو التلميح بالمراد دون التصريح - فيقولون " علمنا هذا إشارة فاذا صار عبارة خفى والاشارة هى ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة لدقة معناه ولطاقته"(١) ٠

ويقولون فى هذا شعرا :

ولى عند اللقاء وفيه عتب	بايماء الجفون الى الجفون
فأبهت خيفة وأذوب خوفا	وأفنى عن حراك أو سكون(٢)

ثم هناك الكلام بالسر وهو كلام موجه إلى المحبوب الذى ينجاوب مع المحب ويبادله حبا بحب وقد جاء فى "مشارق أنوار القلوب" " لابن الدباغ"(٣) ٠

ألا حظة فى كل شيء	وأدعوه سرا بالمنى فيجيب
ملأت به سمعى وقلبى وناظرى	وكل أجزائى فأين يغيب

(١) ابو نصر السراج ، اللمع ، تحقيق د ٠ عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى ، القاهرة ، ١٩٦٦٠ ، ص ٤١٤ ٠

(٢) اللمع ، ص ٤١٤ ٠

(٣) ابن الدباغ ، ديوان مشارق أنوار القلوب ، تحقيق هنرى رينر ، طبعة بيروت ٠ ص ١٠٧

وهى وسائل سامية تفضل الكلام باللسان ، وتعتمد على الشفافية والنقاء وتبتعد عن كل مامن شأنه أن يوقع اللسان فى اللغو ٠

ولقد عرف الحكماء والفلاسفة الصمت كأعلى وسيلة من وسائل التعبير عما يدور فى النفس ، وكثيرين منهم كانوا يجيبون بالصمت وهو نفس مافعله الصوفيه - وقد لاحظنا أن " بوذا " [١] ٠ أو المستنير The inlighted

كان يرفض الاجابة على سؤال تلميذه " واكاجوتا " عندما يسأله عن الأنا العليا أو النفس السامية - ثم أنه كان يقرر أن الصمت هو أبلغ وسيله للتعبير فى مثل هذه الحالات لأنه لا أحد يمكنه أن يعرف كنه النفس أو حقيقة الروح ٠

ولقد أجمع المتصوفة فى سائر العصور ومن جميع الأديان على القول بأن عيان الصوفية مما لايوصف ومما لاينطبق به " [٢] ٠

ومما لاشك فيه أن الأجيال المعاصرة من الشباب فى حاجة الى الصمت فى الوقت الذى لاضرورة فيه للكلام ، بل ويجب عليهم عدم الخوض فى اللغو من الحديث اذا أصبحت عادة البعض كثره الكلام والخوض فى الأعراض والتنابذ والحقد والحسد والنفاق بل لقد فسد المجتمع بفساد الكلمة وترديها الى مهاوى الرذيلة واستخدامها فى تزيين كل محرم وهكذا ضاعت حقوق ونهشت أعراض وأهدرت كرامات

---

(1) Christmas Humphreys, Exploring Buddhism. London, 1974, P. 42-45.

(٢) وولتر سينى ، الزمان والأزل ، ترجمة الدكتور / زكريا ابراهيم ، طبعة بيروت ، ١٩٦٧ م ، ص ١٦٢ الى ١٦٨ ٠

بل وصمت الكثيرين عن قول الحق وارتضوا الزيف والخداع وقول الزور ٠

لذلك حق أن نتعلم متى نتكلم ومتى نصمت ٠

خامسا : الذكر

١ - أهمية الذكر :

مما لاشك فيه أن الرياضات السابقة هى مما لايصح إلا مع أهم الرياضات الروحية على الاطلاق وهى رياضة الذكر ٠ ولقد لاحظت أن أستاذنا الأستاذ الدكتور / أبوالوفا التفتازانى فى كتابة " المدخل الى التصوف الاسلامى "[(١)] قد وصف هذه الرياضة على نحو يبين مدى أهميتها القصوى ٠

وبعد دراستى للرياضات الروحية من المجاهدة والعزلة ، والجوع ، والصمت والسهر ، تبين لى أنه لايمكن للصوفى أن يمارس هذه الرياضات على نحو مستقيم إلامن خلال وجوده داخل سياج روحى يحميه مما يشتت إنتباهه ويصرفه عن الوجود فى حضره الرب طوال الوقت ٠

ولأن هؤلاء القوم المعتدلون من الصوفية يجعلون حالهم مع قوله تعالى " ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات "[(٢)] ٠ فهم يودون لو أنهم كانوا سابقين الى الخيرات فى كل الاوقات ذلك أنهم يعلمون أن الغاية من خلق الكون بمافيه من جن وانس هو من أجل

(١) المدخل الى التصوف الاسلامى ، المقدمه من ص ١٦ - ٤٢ ٠
(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٢ ٠

عبادة الله جل شأنه لقوله تعالى " وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون "[(١)]

ولأن الانسان المعاصر قد يصرف معظم أوقاته لاهيا عن عبادة الله . ولأن وسائل اللهو المتاحة من نتاج الحضارة المعاصرة هى ممايعوق كل عابد ويمنعه عن عبادته وهى أيضا مما يمكن أ ن يخرج كل معتزل وعاكف لله عن عكوفه واعتزاله ، بل هى تجعل من أوقات المسلم مقتا وغضبا عليه من الله . لكل هذا وجد الصوفيه فى الذكر حياة قلوبهم وصحة عزائهم وطريقة مثلى للحديث مع الله والاقلال من الحديث مع البشر وهم فى ذلك يستحضرون قوله تعالى " ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشه ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى "[(٢)] .

وهكذا ينذر القرآن هؤلاء الذين نسوا الله بالعمى وسوء العاقبة يوم القيامة ، فاذا نسى العبد ربه فلا أقل من أن ينوقع نسيان الحق له " قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى"[(٣)] .

ولذلك ينبه الرسول عليه الصلاة والسلام لخطورة ترك الذكر ويوضح كيف أن تارك الذكر أشبه مايكون بالميت الذى يظن أنه على قيد الحياة وماهو كذلك لقوله صلى الله عليه وسلم " مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره مثل الحيّ والميت "[(٤)] .

فالذكر اذن ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة فى هذا الطريق ولايصل أحد الى الله تعالى الا بداوم الذكر "[(٥)] .

---

(١) سورة الذاريات ، الاية ٥٦ .

(٢) سورة طه ، الاية ١٢٤ .

(٣) سوره طه ، الآيه ١٢٦ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الدعوات ، ورواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ، جـ١ ، ص ٥٣٩ .

(٥) الرسالة القشيرية ، ص ١١٠ .

ولأن الذكر حياة القلوب فقد كان " الشبلى " فى ابتداء حاله يضرب نفسه بخشبة أو يضرب بيده ورجليه على الحائط عقابا لها على الغفلة عن ذكر الله ·

والصوفية يأخذون من معانى الذكر مايصلح كى يكون سلاحا يقاتلون به ، كما أنهم أيضا يحاولون الخروج به من ميدان الغفله ، كذلك فبالذكر تحدث المجالسه والمكالمة مع الحق لمن أراد أن يكون الحق له جليس ومؤنس - ويقال فى هذا " الذكر بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الافات ··" ويقول الواسطى عن الذكر " الذكر - الخروج من ميدان الغفله الى فضاء المشاهدة على غلبه الخوف وشدة الحب " (١)

ويقول الشبلى (٢) - أليس الله تعالى يقول أنا جليس من ذكرنى - ويقول شعرا :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة	وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى	وهام علىّ القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى	شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم	ولاحظت معلوما بغير عيان

ومن أروع المعانى التى يقدمها القوم من الصوفية المعتدلين أنهم يعتقدون أن الذكر أتم من الفكر ، ذلك أنك مهما بالغت فى محاولة معرفة الله عن طريق الفكر فانك لاتصل في دقه الوصف مايبلغه الذكر فى ذلك ومن هنا يقول " السلمى " على قول " الدقاق " " عندى الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه وتعالى يوصف بالذكر ولايوصف بالفكر " (٣) ·

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١١١ ·
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١١١ ·
(٣) الرسالة القشيرية ، ص ١١٢

فالذكر هو تلك اللغة التى تتمكن من أن تحظى بوصف يتناسب مع مايصف به الحق نفسه من اسماء وصفات .

٢ - موقف القرآن الكريم من الذكر :

القرآن الكريم حافل بالآيات التى تحض المؤمن على الذكر - وذكر الله أمر الهى واجب الطاعة فى كثير من الآيات لقوله تعالى " فأذكرونى أذكركم "(١) .

وقد يأتى الأمر بالذكر ليكون ذكرا " مستمرا " لاينقطع ، أو ليكون ذكرا فى بعض الأوقات دون بعضها ، أو ليكون ذكرا " كثيرا " لقوله تعالى " ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا "(٢) وقوله جل شأنه " وأذكر ربك كثيرا و سبح بالعشى والابكار "(٣) .وقوله " أذكروا الله فى أيام معدودات "(٤)

ثم أن هناك من الأماكن مايوجب ذكر الله وقد يقترن المكان بالزمان وقد يكون الزمان دون المكان أو العكس لقوله جل شأنه " فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام "(٥) .

فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم "(٦) .

ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون "(٧) .

(١) سورة البقرة ، الاية ١٥٢ .
(٢) سورة الاحزاب ، الاية ٤١ .
(٣) سورة آل عمران ، الآيه ٤١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .
(٦) سورة النساء ، الآية ١٠٣ .
(٧) سورة الجمعة ، الآية ٩ .

" واذكر اسم ربك بُكرة وأصيلا "[(١)] ٠

وهكذا يبدو واضحا أن الأمر بالذكر يشمل المكان والزمان ٠ بل هو يتابع حركة الانسان المسلم فى الأوقات فلا يتركه يغفل عن ذكر الله فاذا اقترنت الصلاة بالذكر واذا لاحظنا كيف أن الذكر صلاة وجب على المسلم أن يباشر ذلك فى كل أحواله سواء كان قائما يصلى أو مضطجعا أو نائما ٠ وسواء كذلك فى الصباح الباكر أو فى الأصيل أو عند الفجر ٠

ومن ثمرات الذكر التى ترغب المؤمن فى الاكثار منه :

١ - الهدى بعد الضلال ٠

٢ - إطمئنان القلوب وحياتها ٠

٣ - الفوز بالرحمة والمغفرة والنجاة من النار ٠

٤ - الذكر المتبادل بين العبد والرب ذلك أن الله جل شأنه وعد عباده بمبادلتهم ذكرا بذكر ٠

يقول عز من قائل " ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هُدى الله يهدى به من يشاء "[(٢)] ٠ " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب "[(٣)] ٠

" إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الرحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ، إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون "[(٤)] ٠

---

(١) سورة الانسان ، الآية ٢٥ ٠
(٢) سورة الزمر ، الاية ٢٣ ٠
(٣) سورة الرعد ، الآية ٢٨ ٠
(٤) سورة المؤمنون ، الآيات ١٠٩ - ١١١ ٠

وقوله فى تبادل الذكر " فاذكرونى أذكركم "[1] . وهو ذكر يقابله النسيان المتبادل أيضا كما قدمنا .

٣ - درجات الذكر :

ويجب على الصوفى ألا ينشغل بالذكر عن مذكوره فان هذا نوع من الغفلة والنسيان لأن الانشغال بكلمات الذكر وطرائقة أمر يقلل كثيرا من الحضور مع الله لذلك نرى القوم يعرفون أعلى مستوى من الذكرى على أنه ذلك الذكر الذى يغيب فيه الذاكر عن ذكره كما يقول " ذو النون المصرى"[2] الذى ينشدنا شعرا :

لا لأن أنساك أكثر ذاكراك ولكن بذاك يجرى لسانى

أى لم يحملنى على كثرة الذكر بلسانى زوال غفلتى ونسيانى لك عن قلبى ، بل أنا أذكرك بقلبى بكل حال .

وهو مايعرف عند الشبلى بتحويل القلب من الاشياء الى رب الاشياء وحال الصوفية فيه أنه ليس من أستأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور .. وليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احُتجب بالحق عن الخلق"[3] .

فاذا توقف ذكر اللسان وترك مكانه لذكر القلب كان هذا هو الطريق الى الذكر المتبادل الذى ينتقل فيه الذاكر من الغفلة الى الاستغراق الكامل فى ذكر الله

(١) سورة البقرة ، الآيه ١٥٢ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١١٢ .
(٣) شهاب الدين الشهروردى ، عوارف المعارف ، تحقيق د . عبد الحليم محمود طبع بمطبعة السعادة ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

ثم هو ينتقل من كون الذكر مجرد طاعة للأمر الى كونه جبلة فى الانسان بحيث يصبح ملازما له ودون تكلف أو افتعال ، ودون انشغال أو تعلق بأمور الحياة الدنيا فاذا كان الامر على هذا النحو واذا دخل الرجال مجالس الذكر بهذه الصفات حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله "[(١)] ٠

ويذكر عبد الرحمن الجامى " فى ترتيبه لمراحل الذكر أن أول مرحلة فيه الغفلة عن النفس وآخرها الفناء - أى فناء الذاكر فى ذكره من غير أن يكون له شعور بذكره - استغراق الذاكر فى المذكور بحيث يمتنع عليه الرجوع الى نفسه "[(٢)]٠

ويحاول "نيكلسون" أن يجد وجها للشبه بين طريقة الصوفية الذين يمارسون هذه الرياضات والمجاهدات الروحية وبين ماكان يعرف فى التصوف المسيحى فى القرون الوسطى باسم Via Purgativa (طريق التطهر)[(٣)] حيث كان أقوى اسلحة المجاهدة فى محاربة النفس بالجوع والعزلة والصمت الا أن هذا الرأى فيه كثير من التعسف حيث تبينا أن كل هذه الرياضات عند الصوفية المعتدلين راجعة الى أصل شرعى مستمد من الكتاب والسنة المطهرة ٠

" ويذكر الدكتور أبو الوفا التفتازانى "[(٤)] أن بعض المستشرقين المعاصرين يميلون الى الاخذ بالرأى القائل " أن التصوف من مصدر اسلامى خالص وأن الاثر

---

(١) الرسالة القشيرية ، هامش ص ١١١ ، ص ١١٢ ، راجع أيضا الشيخ : عبد الحليم محمود " الدكتور " ، أبو الحسن الشاذلى ، القاهرة ، مطابع دار السلام ،ص ١٥٨ ، ١٥٩ ٠

(٢) عبد الرحمن الجامى ، نفحات الانس ، ص ١٦١ ، راجع ايضا نيكلسون فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى ، القاهرة ، ١٩٦٩،ص ٧٩ ٠

(٣) فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ص ٧٨ ٠

(٤) المدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ٤٣ ٠

الاجنبى فى مجاله محدود للغاية وأن تطوره ينبع خطا اسلاميا واضحا ، ومن أمثلـه هؤلاء المستشرق الانجليزى المعاصر سبنسر ترمنجهام S. Trimingham فى كتابه الطرق الصوفية فى الاسلام .

ونحن نرى أن مثل هذه المجاهدات من الامور المحمودة والمقبولة شرعـا لتوافقها مع ظاهر الشرع والأخذ به دون تأويل خصوصا عندما نبتعد المعانى عـن النظريات الفلسفية المغرقة فى الغموض ونبقى فى نطاق الانصياع لأوامر الحق جـل شأنه والمحبه المتبادلة بين العبد والرب ، والذكر المتبادل بين الذاكر والمذكور

ويبقى الذكر وعاءا حاويا للمجاهدات والرياضات الروحية وسابقا عليها ثـم مصاحبا لها . اذا هو معيه الانسان بخالقه وصاحبه الى حوار ربه ، وطريقة للحـوار معه جل شأنه وطريقته لوصفه وسبيله الى حبه وقربه .

ولاشك أن مثل هذه الرياضات من أهم وسائل المسلم الى التخلص من حجب كثيـرة تحجب الانسان عن ربه فهى تطهر نفسه وتنقى روحه وتفتح بابا للنور الالهى كـى يكشف ظلام القلوب والاجساد .

الخاتمة

خلاصة هذا البحث أنه يسلط الضوء على الطريقة التى اتبعها صوفية المسلمين لتقويم الباطن وعلاجه مما يلحق به من افات وأمراض .
فيما يعد ثوره روحيه وتجديدا للفكر الصوفى كى يكون متفقا مع كتاب الله وسنه رسوله وكذا روح العصر وفى هذا المجال توصلنا للنتائج التاليه :

١ ــ كان الصوفيه على علم بما يهدد السلامة الاخلاقية والنفسية عند الانسان ــ وقد أتضح لنا أنهم صنفوا مايواجههم من آفاق وعيوب توقعهم فى المعاصى ، فهم يتحدثون عن الحقد والحسد والنفاق ، والرياء والكراهية ، كما يتحدثون عن الاسراف فى اشباع شهوات النفس والانقياد إلى غرائزها ومايترتب على ذلك من سلوك معوج .

٢ ــ يقدم الصوفية الحواس العادية باعتبارها مصدرا من مصادر الشهوة والمرض ــ وهم يعتقدون أن للعين شهوة فى النظر للحرمات ، وللقلب شهوة فى استمراء اللذات وللسمع شهوة فى الميل إلى سماع المنكر من الأصوات .... وهكذا يحددون الداء ويصفون الدواء .

٣ ــ وهم عندما يتحدثون عن العزلة لايقصدون بذلك اعتزال المجتمع فى كل الأوقات بل هم يجدون لها العديد من المعانى .

أ ــ فهى أولا قد تكون وعيا بالانا ومع ذلك فهى تفترض وجود الآخر وتشعر به وتستجيب له .

ب ــ والعزلة عندما تكون اعتصاما بالأنا تكون حماية لها من طغيان الانت ــ وهى ليست عزلة دائمة وانما هى عزلة فى وقت الخطر ، ذلك أن الأنا ومايوجد بها من وعى ذاتى عرضة للانقطاع السريع لأن هذا الانعزال يبدد تكامل الذات .

جـ ــ لاحظنا أن العزلة عندهم تعد مرحلة من مراحل النمو الروحى المعتمد على الانفصال عن روتين اليومى والمرتبط بقوى الروح النشطة

د ـ جاءت العزلة فى القرآن الكريم بمعنى حماية الأنا الفاضلة من طغيان ـ الآخرين ، وتضمنت فى حمايتها حماية للأمة المؤمنة .

هـ تضمن معنى العزلة عند صوفية المسلمين اعتزالهم فى المجتمع وليس اعتزالهم عن المجتمع ذلك أنهم يضعون بينهم وبين الناس حجابا من الذكر يقطع بينهم وبين الخلق ويصلهم بالله عندما يعتاد الناس خيانه الأمانه ، ونقض العهود وعندما تسود قيم هدامه كالغدر والنفاق والرياء وهذه هى العزله النفسيه ، وهناك العزله المكانية التى يعتزل فيه الانسان المكان حتى يأمن على دينه ، وهو فى هذا النوع قد يفر من أهله وزوجه وبنيه لأنهم قد يدفعونه الى ارتكاب المعاصى .

وبالاضافة إلى أن العزلة تعين الانسان على القيام بما فرض عليه من أمور دينه فانها أيضا استئناس بالقرب من الله ذلك أن القاعدة عند هؤلاء القوم أن الأنس بغير الله من علامات الافلاس .

والعزله عند ابن سبعين [١] فرار النفس عن القبيح المهلك لها لا البعد عن الأهل فهى عزلة وسط الناس وليست اعتزالهم .

٤ ـ ويلجاء الصوفية الى الاقلال من المأكل والمشرب كوسيلة من وسائل جهاد النفس الموصل إلى الكمال الروحى . وهم فى هذا يقدمون نموذجا رائعا وسابقا لعصره من الناحيتين الطبيه والاقتصادية الى جانب الناحية الروحية فالجوع يمثل عند القوم عمارة للباطن وتجرد من العلائق .

وهو طعام الملكات الروحية فبالجوع تقوى الروح وتنهزم النفس ، وبالجوع تموت مواطن الشهوة ، لأن الانسان اذا أكثر من الأكل ثقل بدنه وفترت أعضاؤه فلا يجد ميلا للعبادة أو الاجتهاد فى الطاعة وهنا يلمس الصوفية ناحية هامة من النواحى النفسية التى

---

(١) أبو الوفا التفتازانى (الدكتور) ابن سبعين وفلسفته الصوفيه بيروت ١٩٧٣ ص ٤٤٤

يؤكدها العلم الحديث حيث أنه من الثابت أن الأنسان قد يميل إلى الخمول والكسل كلما امتلأت المعدة بالطعام .

ومن النتائج الهامة المترتبه على فهم الصوفية للجوع كأحد الوسائل التى يستخدمونها فى تهذيب نفوسهم أن الجوع هنا جوع ارادى أى أنه يتم بمحض — اختيار الانسان ، فالممنوع عن الأكل لايكون جائعا فى نظرهم وانما الجائع هو ذلك الذى يجد الكثير من صنوف الطعام ومع ذلك يمتنع عن تناوله بهدف تقييد الشيطان وحبس هوى النفس .

ومن النتائج العصرية التى توصل اليه الصوفية قبل الأوان أن الجوع الارادى وسيلة فعالة فى علاج الأحوال الاقتصادية خصوصا عندما ترتفع الأسعار ويشح الطعام بسبب اقبال الناس على اشباع البطون — فعندما كانت أسعار المأكولات ترتفع كان ابراهيم بن أدهم يقول لأصحابة « أرخصوها بالترك » (١) وقال بعضهم انى لأقضى معظم حوائجى بالترك » (٢)

ويستحب ألا ينام العبد على شبع لأنه يكون سببا فى قسوة القلب ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « أذ يبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولاتناموا عليه فتقسو قلوبكم » (٣)

٥ — والصمت عند الصوفيه ليس صمتا دائما وانما هو صمت عن القول القبيح وعن الغيبه والنميمه واشاعة الأسرار .

ويقبح الصوفيه الصمت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهم يسيرون على منهج رسول الله ﷺ فيما يعتقدون من أن السكوت عمدا فى مواضع السكوت خير من الكلام فى غير موضعه .

(١ ، ٢) احياء علوم الدين ، تحقيق بدوى طبانه ، جـ ٣ ، ص ٨٦ ، ص ٩٦ .
راجع الجزء الثالث من كتاب احياء علوم الدين للوقوف على المزيد مما يتبعه القوم فى رياضة النفس ومعالجة أمراض القلوب من ص ٤٧ : ١٠٢

(٣) احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٩٢ ، والحديث ليس له سند

ويكون الصمت فى موضعه عندما يكون افلاتا من الوقوع فى الكذب أو تحاشيا لنفاق أو موافقة على منكر فكل هذه الأحوال يكون الصمت فيها من الخصال الحميدة

ويعتقد الصوفية أن من الناس من يكون أهلا للسماع ومنهم من لايكون أهل له . لذلك يجب الصمت أحيانا لأنه قد يكون فتنه للسامع لذلك يعتقد القوم أن هناك من الوسائل مايفضل الكلام - ومنها الصمت والرمز وحيث جعل الله الصمت آيه زكريا ودليله على أن الله يبشره بيحيى بل لعل الأمر الالهى الموجه الى السيده العذراء" مريم بالصمت عن الكلام كنوع من الصوم الذى يقره الحق صوما وقنوتا له ويجعله وسيلة نجاة مما قد يقع من حديث مع قومها - لعل هذا هو أحد أهداف الصمت عند صوفيه المسلمين . كما جاء فى القرآن الكريم فى الآيات من سورة آل عمران وسورة مريم .

وبصفة عامة فان رياضة النفس عند الصوفية ومجاهدتها أمر ينطلق من التعلق بكتاب الله وسنه رسوله كما أنها تتمشى فى كثير من جوانبها مع مايتطلبه العصر من الانسان المسلم .

كذلك أدرك القوم من الصوفية أن هناك نوع من الصمت يكون أكثر خطورة من الكلام لأنه فى الواقع ليس صمتا وانما هو حديث نفسى باطنى خفى يدور فى باطن الانسان - وهو فى منتهى الخطورة عندما يحدث الانسان نفسه بالحقد والحسد وارتكاب المحرمات واشتهاء الغرائز . استثارتها داخليا ثم محاولة احداثها فى العالم المحيط . وهذه الأنفس الشريرة هى مما يذمه الحق جل شأنه وينهى عما يعتمل بها لأنها دليل على مرض القلوب الذى يفتك بالخير .

مع ذلك فهناك من حديث النفس ماهو خير لذلك نراهم يتلمسون النجاة مما قد يقعون فيه من شرور ويفرقون بين الكلام والصمت وبين الصمت والصمت ٠ بمعنى أن هناك ضرورة للصمت أحيانا ثم أن هناك ضرورة للكلام أحيانا أخرى كذلك هناك صمت قبيح لأنه صمت عن الخير وصمت مرغوب لأنه صمت عن المحرمات ٠

عن ابراهيم بن أبى عبلة[1] ٠

لسانك مابخلت به مصون فلاتهمله ليس له قيود

فانك لن ترد الدهر قولا نطقت به وأنديه قعود

كما لم ترجع مشتقاه ماء ولم يرتد فى الرحم الوليد.

ويقول عبد الله بن المبارك[2] ٠

أدبت نفسى فما وجدت لها من بعد تقوى من أدب

فى كل حالاتها إن قصرت أفضل من صمتها عن الكذب

قلت لها طائعا - وأكرهها الحلم والعلم زين ذى الحسب

ان كان من فضة كلامك نفس فان السكوت من ذهب

ومن النتائج التى ترتبت على دراستنا للذكر أنه وعاء حاوى للرياضات الروحية سابق لها ومصاحب لكل رياضه، وبه نصح هذه الرياضات وتسمو كذلك فهو تلك اللغة التى يتم بها الحوار بين العبد وربه وهى وسيلته لوصف الحق جل شأنه ٠

تم بحمد الله

(١ ، ٢) راجع الصمت ، ص ٣١٤ ، ص ٣١٥ ٠

أولا : المراجع العربية

١ - ألبرت أشفيسر ، فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، طبعة بيروت ، ١٩٨٣ ٠

٢ - الكسس كارل ، تأملات فى سلوك الانسان ترجمه الدكتور محمد القصاص ٠

٣ - ابن تيميه ، مجموع فتاوى ابن تيميه الحرانى ، طبعة المملكة العربية السعودية ٠ ٣٩٨ هـ ٠

٤ - ابن الدباغ ، مشارق أنوار القلوب ، تحقيق هنرى رينر ٠ بدون تاريخ ٠

٥ - التفتازانى (الدكتور أبو الوفا) ، المدخل الى التصوف الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٣ م ٠

٦ - التفتازانى (الدكتور أبو الوفا) ابن سبعين وفلسفته الصوفيه ، بيروت ، ١٩٧٣ م ٠

٧ - الجرجانى ، التعريفات ، طبع مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ٠

٨ - الحافظ بن سليمان البستى ، العزلة ، طبعة دار الكتب العلمية بدون تاريخ ٠

٩ - حسن حنفى (الدكتور) ، التراث والتجديد ، القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٨٧م

١٠- السهرودى ، عوارف المعارف ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، القاهرة مطبعة السعادة ٠

١١- السراج الطوسى (أبوالنصر) اللمع ، تحقيق د ٠ عبد الحليم محمود ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

١٢- عبد الحليم محمود (الدكتور) ابو الحسن الشاذلى ، القاهرة ، مطابع دار السلام ٠

١٣- عبد الوهاب الشعرانى ، الانوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ، نشر دار جوامع الحكم ، القاهرة ١٩٨٧ م .

١٤- عبد الله بن محمد بن عبيد (الحافظ ابى بكر) ، الصمت وحفظ اللسان تحقيق الدكتور محمد أحمد عاشور ، القاهرة ١٩٨٨.

١٥- الغزالى (أبو حامد) احياء علوم الدين ، تحقيق الدكتور بدوى طبانه ، بدون تاريخ .

١٦- الغزالى (أبو حامد) ، مكاشفة القلوب ، طبعة مصطفى تاج ، طنطا بدون تاريخ .

١٧- عبد القادر الجيلانى ، الغنية لطالبى طريق الحق ، مطبعة البابى الحلبى القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٨- قاسم غنى ، تاريخ التصوف فى الاسلام ، القاهرة ١٩٧٣ م .

١٩- القشيرى (أبو القاسم) الرسالة يسة القشيرية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

٢٠- الكمشخانوى ، جامع الأصول ، القاهرة ١٣٣١ هـ .

٢١- الكلاباذى ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، القاهرة ١٩٦٠ .

٢٢- المكى " أبوطالب " الغنية لطالبى أهل الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

٢٣- المحاسبى ، الرعاية لحقوق الله ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ،القاهرة ١٩٨٤ م .

٢٤- نيقولاى برديائف ، العولة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢م.

٢٥- نيكلسون ، فى التصوف الاسلامي وتاريخه ترجمه الدكتور ابو العلا عفيفـــى القاهرة ، ١٩٤٧م .

٢٦- الهجويرى ، كشف المحجوب ، ترجمة الدكتورة اسعاد عبد الهادى قنديـــل القاهرة ١٩٧٥ .

٢٧- وولتر سينس ، الزمان والأزل ، ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم ، بيروت ١٩٦٧م

ثانيا : المراجع الانجليزية :

28 - Christams Humphery, Explorig Buddhism, London, 1974.

29 - Evelyn underhill: Astudy in the nature and development of man's spiritual Consiousness London, 1949.

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
٩٤٦٧ لسنة ١٩٨٩

الطبعة الثانية ١٩٩٠

